(٧٩) سورة النازعات مكية وآياتها ست وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والنازعات غرقاً ، والناشطات نشطا ، والسابحات سبحاً ، فالسابقات سبقاً ، فالمدبرات أمراً ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن هذه الكلمات الخمس ، يحتمل أن تكون صفات لشيء واحد ، ويحتمل أن لا تكون كذلك ، أما على الاحتمال الأول فقد ذكروا فى الآية وجوهاً (أحدها) أنها بأسرها صفات الملائكة ، فقوله (والنازعات غرقا)هى الملائكة الذين ينزعون نفوس بنى آدم فاذا نزعوا نفس الكفار نزعوها بشدة ، وهو مأخوذ من قولهم نزع فى القوس فأغرق يقال أغرق النازع فى القوس إذا بلغ غاية المدى حتى ينتهى إلى النصل ، فتقدير الآية : والنازعات إغراقاً ، والغرق والإغراق فى اللغة بمعنى واحد ، وقوله (والناشطات نشطاً) النشط هو الجذب يقال نشطت الدلو أنشطها وأنشطتها نشطا نزعتها برفق ، والمراد هى الملائكة التى تنشط روح المؤمن فتقبضها ، وإنما خصصنا هذا بالمؤمن والأول بالكافر لما بين النزع والنشط من الفرق فالنزاع جذب بشدة ، والنشط جذب برفق ولين فالملائكة ، تنشط أرواح المؤمنين كما تنشط الدلو من البئر فالحاصل أن قوله (والنازعات غرقا ، والناشطات نشطاً) قسم بملك الموت وأعوانه إلا أن الأول إشارة إلى كيفية قبض أرواح الكفار ، والثانى إشارة إلى كيفية قبض أرواح المؤمنين ، أما قوله (والسابحات سبحا) فمنهم من خصصه أيضاً بملائكة قبض الأرواح ، ومنهم من حمله على سائر طوائف الملائكة ، أما (الوجه الأول) فنقل عن على عليه السلام ، وابن عباس ومسروق ، أن الملائكة يسلون أرواح المؤمنين سلا رفيقاً ، فهذا هو المراد من قوله (والناشطات نشطاً) ثم يتركونها حتى تستريح رويداً ، ثم يستخرجونها بعد ذلك برفق ولطافة كالذى يسبح فى الماء فإنه يتحرك برفق ولطافة لئلا يغرق ، فكذا ههنا يرفقون فى ذلك الاستخراج ، لئلا يصل إليه ألم وشدة

فذاك هو المراد من قوله (والسابحات سبحاً) وأما الذين حملوه على سائر طوائف الملائكة فقالوا إن الملائكة ينزلون من السماء مسرعين ، فجعل نزولهم من السماء كالسباحة ، والعرب تقول للفرس الجواد ، إنه السابح ، وأما قوله (فالسابقات سبقا) فمنهم من فسره بملائكة قبض الأرواح يسبقون بأرواح الكفار إلى النار ، وبأرواح المؤمنين إلى الجنة ، ومنهم من فسره بسائر طوائف الملائكة ، ثم ذكروا فى هذا السبق وجوهاً (أحدها) قال مجاهد وأبو روق إن الملائكة سبقت ابن آدم بالإيمان والطاعة ، ولا شك أن المسابقة فى الخيرات درجة عظيمة قال تعالى (والسابقون السابقون أولئك المقربون (وثانيها) قال الفراء والزجاج إن الملائكة تسبق الشياطين بالوحى إلى الأنبياء لأن الشياطين كانت تسترق السمع (وثالثها) ويحتمل أن يكون المراد أنه تعالى وصفهم فقال (لايسبقونه بالقول) يعنى قبل الإذن لايتحركون ولا ينطقون تعظيما لجلال الله تعالى وخوفاً من هيبته ، وههنا وصفهم بالسبق يعنى إذا جاءهم الأمر ، فإنهم يتسارعون إلى امتثاله ويتبادرون إلى إظهار طاعته ، فهذا هو المراد من قوله (فالسابقات سبقاً) ، وأما قوله (فالمدبرات أمراً) فأجمعوا على أنهم هم الملائكة : قال مقاتل يعنى جبريل وميكائيل ، وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام يدبرون أمر الله تعالى فى أهل الأرض ، وهم المقسمات أمراً ، أما جبريل فوكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فوكل بالقطر والنبات ، وأما ملك الموت فوكل بقبض الأنفس ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم ، وقوم منهم موكلون بحفظ بنى آدم ، وقوم آخرون بكتابة أعمالهم وقوم آخرون بالخسف والمسخ والرياح والسحاب والأمطار ، بقى على الآية سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قال فالمدبرات أمراً ، ولم يقل أموراً فإنهم يدبرون أموراً كثيرة لا أمراً واحداً ؟ (والجواب) أن المراد به الجنس ، وإذا كان كذلك قام مقام الجمع ،

﴿ السؤال الثانى ﴾ قال تعالى إن الأمر كله لله فكيف أثبت لهم ههنا تدبير الأمر . (والجواب) لما كان ذلك الإتيان به كان الأمر كأنه له ، فهذا تلخيص ما قاله المفسرون فى هذا الباب ، وعندى فيه (وجه آخر) وهو أن الملائكة لها صفات سلبية وصفات إضافية ، أما الصفات السلبية فهى أنها مبرأة عن الشهوة والغضب والأخلاق الذميمة ، والموت والهرم والسقم والتركيب من الأعضاء والأخلاط والأركان ، بل هى جواهر روحانية مبرأة عن هذه الأحوال ، فقوله (والنازعات غرقا) إشارة إلى كونها منزوعة عن هذه الأحوال نزعا كليا من جميع الوجوه وعلى هذا التفسير (النازعات) هى ذوات النزع كاللابن والتامر ، وأما قوله (الناشطات نشطا) إشارة إلى أن خروجها عن هذه الأحوال ليس على سبيل التكليف والمشقة كما فى حق البشر ، بل هم بمقتضى ماهياتهم خرجوا عن هذه الأحوال وتنزهوا عن هذه الصفات ، فهاتان الكلمتان إشارتان إلى تعريف أحوالهم السلبية ، وأما صفاتهم الإضافية فهى قسمان (أحدهما) شرح قوتهم العاقلة أى كيف حالهم فى معرفة ملك الله وملكوته والاطلاع على نور جلاله فوصفهم فى هذا المقام بوصفين

(أحدهما) قوله (والسابحات سبحا) فهم يسبحون من أول فطرتهم فى بحار جلال الله ثم لا منتهى لسباحتهم ، لأنه لا منتهى لعظمة الله وعلو صمديته ونور جلاله وكبريائه ، فهم أبداً فى تلك السباحة (وثانيهما) قوله (فالسابقات سبقا) وهو إشارة إلى مراتب الملائكة فى تلك السباحة فإنه كما أن مراتب معارف البهائم بالنسبة إلى مراتب معارف البشر ناقصة ، ومراتب معارف البشر بالنسبة إلى مراتب معارف الملائكة ناقصة ، فكذلك معارف بعض تلك الملائكة بالنسبة إلى مراتب معارف الباقين متفاوتة ، وكما أن المخالفة بين نوع الفرس ونوع الإنسان بالماهية لا بالعوارض فكذا المخالفة بين شخص كل واحد من الملائكة وبين شخص الآخر بالماهية فإذا كانت أشخاصها متفاوتة بالماهية لا بالعوارض كانت لا محالة متفاوتة فى درجات المعرفة وفى مراتب التجلى فهذا هو المراد من قوله (فالسبقات سبقا) فهاتان الكلمتان المراد منهما شرح أحوال قوتهم العاقلة .

وأما قوله (فالمدبرات أمراً) فهو إشارة إلى شرح حال قوتهم العاملة ، وذلك لأن كل حال من أحوال العالم السفلى مفوض إلى تدبير واحد من الملائكة الذين هم عمار العالم العلوى وسكان بقاع السموات ، ولما كان التدبير لا يتم إلا بعد العلم ، لاجرم قدم شرح القوة العاقلة التى لهم على شرح القوة العاملة التى لهم ، فهذا الذى ذكرته احتمال ظاهر والله أعلم بمراده من كلامه .

واعلم أن أبا مسلم بن بحر الأصفهانى طعن فى حمل هذه الكلمات على الملائكة ، وقال واحد النازعات نازعة وهو من لفظ الإناث ، وقد نزه الله تعالى الملائكة عن التأنيث ، وعاب قول الكفار حيث قال (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) .

واعلم أن هذا طعن لا يتوجه على تفسيرنا ، لأن المراد الأشياء ذوات النزع ، وهذا القدر لا يقتضى ما ذكر من التأنيث .

﴿ الوجه الثانى فى تأويل هذه الكلمات ﴾ أنها هى النجوم وهو قول الحسن البصرى ووصف النجوم بالنازعات يحتمل وجوها : (أحدها) كأنها تنزع من تحت الأرض فتنجذب إلى ما فوق الأرض ، فإذا كانت منزوعة كانت ذوات نزع ، فيصح أن يقال إنها نازعة على قياس اللابن والتامر (وثانيها) أن النازعات من قولهم نزع إليه أى ذهب نزوعا ، هكذا قاله الواحدى فكأنها تطلع وتغرب بالنزع والسوق (والثالث) أن يكون ذلك من قولهم نزعت الخيل إذا جرت ، فمعنى (والنازعات) أى والجاريات على السير المقدر والحد المعين وقوله (غرقاً) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون حالا من النازعات أى هذه الكواكب كالغرقى فى ذلك النزع والإرادة وهو إشارة إلى كمال حالها فى تلك الإرادة ، فإن قيل إذا لم تكن الأفلاك والكواكب أحياء ناطقة ، فما معنى وصفها بذلك قلنا هذا يكون على سبيل التشبيه كقوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) فإن الجمع بالواو والنون يكون للعقلاء ، ثم إنه ذكر فى الكواكب على سبيل التشبيه (والثانى) أن يكون معنى غرقها

غيوبتها فى أفق الغرب ، فالنازعات إشارة إلى طلوعها وغرقاً إشارة إلى غروبها أى تنزع ، ثم تغرق إغراقاً ، وهذا الوجه ذكره قوم من المفسرين .

أما قوله (والناشطات نشطاً) فقال صاحب الكشاف : معناه أنها تخرج من برج إلى برج من قولك : ثور ناشط إذا خرج من بلد إلى بلد . وأقول يرجع حاصل هذا الكلام إلى أن قوله (والنازعات غرقاً) إشارة إلى حركتها اليومية (والناشطات نشطاً) إشارة إلى انتقالها من برج إلى برج وهو حركتها المخصوصة بها فى أفلاكها الخاصة ، والعجب أن حركاتها اليومية قسرية ، وحركتها من برج إلى برج ليست قسرية ، بل ملائمة لذواتها ، فلا جرم عبر عن الأول بالنزع وعن الثانى بالنشط ، فتأمل أيها المسكين فى هذه الأسرار .

وأما قوله (والسابحات سبحاً) فقال الحسن وأبو عبيدة رحمهما الله : هى النجوم تسبح فى الفلك ، لأن مرورها فى الجو كالسبح ، ولهذا قال (كل فى فلك يسبحون) .

وأما قوله (فالسابقات سبقاً) فقال الحسن وأبو عبيدة : هى النجوم يسبق بعضها بعضاً فى السير بسبب كون بعضها أسرع حركة من البعض ، أو بسبب رجوعها أو استقامتها ،

وأما قوله تعالى (فالمدبرات أمراً) ففيه وجهان (أحدهما) أن بسبب سيرها وحركتها يتميز بعض الأوقات عن بعض ، فتظهر أوقات العبادات على ما قال تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد) وقال (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) وقال (لتعلموا عدد السنين والحساب) ولأن بسبب حركة الشمس تختلف الفصول الأربعة ، ويختلف بسبب اختلافها أحوال الناس فى المعاش ، فلا جرم أضيفت إليها هذه التدبيرات (والثانى) أنه لما ثبت بالدليل أن كل جسم محدث ثبت أن الكواكب محدثة مفتقرة إلى موجد يوجدها ، وإلى صانع يخلقها ، ثم بعد هذا لو قدرنا أن صانعها أودع فيها قوى مؤثرة فى أحوال هذا العالم ، فهذا يطعن فى الدين البتة ، وإن لم نقل بثبوت هذه القوى أيضاً ، لكنا نقول إن الله سبحانه وتعالى أجرى عادته بأن جعل كل واحد من أحوالها المخصوصة سبباً لحدوث حادث مخصوص فى هذا العالم ، كما جعل الأكل سبباً للشبع ، والشرب سبباً للرى ، ومماسة النار سببا للاحتراق ، فالقول بهذا المذاهب لا يضر الإسلام البتة بوجه من الوجوه ، والله أعلم بحقيقة الحال .

﴿ الوجه الثالث ﴾ فى تفسير هذه الكلمات الخمسة أنها هى الأرواح ، وذلك لأن نفس الميت تنزع ، يقال فلان فى النزع ، وفلان ينزع إذا كان فى سياق الموت ، والأنفس نازعات عند السياق ، ومعنى (غرقا) أى نزعاً شديداً أبلغ ما يكون وأشد من إغراق النازع فى القوس وكذلك تنشط لأن النشط معناه الخروج ، ثم الأرواح البشرية الخالية عن العلائق الجسمانية المشتاقة إلى الاتصال العلوى بعد خروجها من ظلمة الأجساد تذهب إلى عالم الملائكة ، ومنازل القدس على أسرع الوجوه فى روح وريحان ، فعبر عن ذهابها على هذه الحالة بالسباحة ، ثم لا شك أن مراتب الأرواح

فى النفرة عن الدنيا ومحبة الاتصال بالعالم العلوى مختلفة فكلما كانت أتم فى هذه الأحوال كان سيرها إلى هناك أسبق ، وكلما كانت أضعف كان سيرها إلى هناك أثقل ، ولا شك أن الأرواح السابقة إلى هذه الأحوال أشرف فلا جرم وقع القسم بها ، ثم إن هذه الأرواح الشريفة العالية لا يبعد أن يكون فيها ما يكون لقوتها وشرفها يظهر منها آثار فى أحوال هذا العالم فهى (فالمدبرات أمراً) أليس أن الانسان قد يرى أستاذه فى المنام ويسأله عن مشكلة فيرشده إليها ؟ أليس أن الابن قد يرى أباه فى المنام فيهديه إلى كنز مدفون ؟ أليس أن جالينوس قال كنت مريضاً فعجزت عن علاج نفسى فرأيت فى المنام واحداً أرشدنى إلى كيفية العلاج ؟ أليس أن الغزالى قال إن الأرواح الشريفة إذا فارقت أبدانها ، ثم اتفق إنسان مشابه للانسان الأول فى الروح والبدن ، فانه لا يبعد أن يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير فتسمى تلك المعاونة الهاماً ؟ ونظيره فى جانب النفوس الشريرة وسوسة ، وهذه المعانى وإن لم تكن منقولة عن المفسرين إلا أن اللفظ محتمل لها جداً .

(الوجه الرابع) فى تفسير هذه الكلمات الخمس أنها صفات خيل الغزاة فهى نازعات لأنها تنزع فى أعنتها نزعا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها لأنها عراب وهى (ناشطات) لأنها تخرج من دار الاسلام إلى دار الحرب ، من قولهم ثور ناشط إذا خرج من بلد إلى بلد ، وهى سابحات لأنها تسبح فى جريها وهى سابقات ، لأنها تسبق إلى الغاية ، وهى مدبرات لأمر الغلبة والظفر ، وإسناد التدبير إليها مجاز لأنها من أسبابه .

(الوجه الخامس) وهو اختيار أبى مسلم رحمه الله أن هذه صفات الغزاة فالنازعات أيدى الغزاة يقال للرامى نزع فى قوسه ، ويقال أغرق فى النزع إذا استوفى مد القوس ، والناشطات السهام وهى خروجها عن أيدى الرماة ونفوذها ، وكل شىء حللته فقد نشطته ، ومنه نشاط الرجل وهو انبساطه وخفته ، والسابحات فى هذا الموضع الخيل وسبحها العدو ، ويجوز أن يعنى بها الإبل أيضا ، والمدبرات مثل المعقبات ، والمراد أنه يأتى فى أدبار هذا الفعل الذى هو نزع السهام وسبح الخيل وسبقها الأمر الذى هو النصر ، ولفظ التأنيث إنما كان لأن هؤلاء جماعات ، كما قيل المدرات ، ويحتمل أن يكون المراد الآلة من القوس والأوهاق ، على معنى المنزوع فيها والمنشوط بها .

(الوجه السادس) أنه يمكن تفسير هذه الكلمات بالمراتب الواقعة فى رجوع القلب من غير الله تعالى إلى الله (فالنازعا غرقا) هى الأرواح التى تنزع إلى اعتلاق العروة الوثقى ، أو المنزوعة عن محبة غير الله تعالى (والناشطات نشطاً) هى أنها بعد الرجوع عن الجسمانيات تأخذ فى المجاهدة ، والتخلق بأخلاق الله سبحانه وتعالى بنشاط تام ، وقوة قوية (والسابحات سبحا) ثم إنها بعد المجاهدة تسرح فى أمر الملكوت فتقطع فى تلك البحار فتسبح فيها (فالسابقات سبقا) إشارة إلى تفاوت الأرواح فى درجات سيرها إلى الله تعالى (فالمدبرات أمراً) إشارة إلى أن آخر مراتب

البشرية متصلة بأول درجات الملكية ، فلما انتهت الأرواح البشرية إلى أقصى غاياتها وهى مرتبة السبق اتصلت بعالم الملائكة وهو المراد من قوله (فالمدبرات أمراً) فالأربعة الأول هى المراد من قوله (يكاد زيتها يضىء) و (الخامسة) هى النار فى قوله (ولو لم تمسسه نار) .

واعلم أن الوجوه المنقولة عن المفسرين غير منقولة عن رسول الله ﷺ نصاً ، حتى لا يمكن الزيادة عليها ، بل إنما ذكروها لكون اللفظ محتملا لها ، فإذا كان احتمال اللفظ لما ذكرناه ليس دون احتماله للوجوه التى ذكروها لم يكن ماذكروه أولى مما ذكرناه إلا أنه لابد ههنا من دقيقة ، وهو أن اللفظ محتمل للكل ، فإن وجدنا بين هذه المعانى مفهوما واحداً مشتركا حملنا اللفظ على ذلك المشترك : وحينئذ يندرج تحته جميع هذه الوجوه . أما إذا لم يكن بين هذه المفهومات قدر مشترك تعذر حمل اللفظ على الكل ، لأن اللفظ المشترك لا يجوز استعماله لإفادة مفهوميه معاً ، فحينئذ لا نقول مراد الله تعالى هذا ، بل نقول يحتمل أن يكون هذا هو المراد ، أما الجزم فلا سبيل إليه ههنا .

﴿الاحتمال الثانى﴾ وهو أن تكون الألفاظ الخمسة صفات لشىء واحد ، بل لأشياء مختلفة ، ففيه أيضاً وجوه (الأول) النازعات غرقاً ، هى : القسى ، والناشطات نشطاً هى الأوهاق ، والسابحات السفن ، والسابقات الخيل ، والمدبرات الملائكة ، رواه واصل بن السائب : عن عطاء (الثانى) نقل عن مجاهد : فى النازعات ، والناشطات ، والسابحات أنها الموت ، وفى السابقات ، والمدبرات أنها الملائكة ، وإضافة النزع ، والنشط ، والسبح إلى الموت مجاز بمعنى أنها حصلت عند حصوله (الثالث) قال قتادة : الجميع هى النجوم إلا المدبرات ، فإنها هى الملائكة

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر فالسابقات بالفاء ، والتى قبلها بالواو ، وفى علته وجهان (الأول) قال صاحب الكشاف : إن هذه مسببة عن التى قبلها ، كأنه قيل : واللاتى سبحن ، فسبقن كما تقول قام فذهب أوجب الفاء أن القيام كان سبباً للذهاب ، ولو قلت : قام وذهب لم تجعل القيام سبباً للذهاب ، قال الواحدى : قول صاحب النظم غير مطرد فى قوله (فالمدبرات أمراً) لأنه يبعد أن يجعل السبق سبباً للتدبير ، وأقول يمكن الجواب عن اعتراض الواحدى رحمه الله من وجهين : (الأول) لا يبعد أن يقال : إنها لما أمرت سبحت فسبقت فدبرت أمرت بتدبيرها وإصلاحها ، فتكون هذه أفعالا يتصل بعضها ببعض ، كقولك قام زيد ، فذهب ، فضرب عمراً ، (الثانى) لا يبعد أن يقال : إنهم لما كانوا سابقين فى أداء الطاعات متسارعين إليها ظهرت أمانتهم ، فلهذا السبب فوض الله إليهم تدبير بعض العالم (الوجه الثانى) أن الملائكة قسمان ، الرؤساء والتلامذة ، والدليل عليه أنه سبحانه وتعالى قال : (قل يتوفاكم الموت) ثم قال : (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) فقلنا فى التوفيق بين الآيتين : أن ملك الموت هو الرأس ، والرئيس وسائر الملائكة هم التلامذة ، إذا عرفت هذا فنقول : النازعات ، والناشطات

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾

والسابحات ، محمولة على التلامذة الذين هم يباشرون العمل بأنفسهم ، ثم قوله تعالى (فالسابقات ... فالمدبرات) إشارة إلى الرؤساء الذين هم السابقون ، فى الدرجة والشرف ، وهم المدبرون لتلك الأحوال والأعمال .

قوله تعالى : ﴿ يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ جواب القسم المتقدم محذوف أو مذكور فيه وجهان (الأول) أنه محذوف ، ثم على هذا الوجه فى الآية احتمالات :

﴿ الأول ﴾ قال الفراء التقدير : لتبعثن ، والدليل عليه ما حكى الله تعالى عنهم ، أنهم قالوا : (أئذا كنا عظاما نخرة) أى أنبعث إذا صرنا عظاما نخرة (الثانى) قال الأخفش والزجاج : لتنفخن فى الصور نفختين ودل على هذا المحذوف ذكر الراجفة والرادفة وهما النفختان (الثالث) قال الكسائى الجواب المضمر هو أن القيامة واقعة وذلك لأنه سبحانه وتعالى قال (والذاريات ذروا) ثم قال (إنما توعدون لصادق) وقال تعالى (والمرسلات عرفا . إنما توعدون لواقع) فكذلك ههنا فإن القرآن كالسورة الواحدة (القول الثانى) أن الجواب مذكور وعلى هذا القول احتمالات (الأول) المقسم عليه هو قوله (قلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة) والتقدير والنازعات غرقاً أن يوم ترجف الراجفة تحصل قلوب واجفة وأبصارها خاشعة (الثانى) جواب القسم هو قوله (هل أتاك حديث موسى) فإن هل ههنا بمعنى قد ، كما فى قوله (هل أتاك حديث الغاشية) أى قد أتاك حديث الغاشية (الثالث) جواب القسم هو قوله (إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا فى ناصب يوم بوجهين (أحدهما) أنه منصوب بالجواب المضمر والتقدير لتبعثن يوم ترجف الراجفة ، فإن قيل كيف يصح هذا مع أنهم لا يبعثون عند النفخة الأولى والراجفة هى النفخة الأولى ؟ قلنا المعنى لتبعثن فى الوقت الواسع الذى يحصل فيه النفختان ، ولا شك أنهم يبعثون فى بعض ذلك الوقت الواسع وهو وقت النفخة الأخرى ، ويدل على ما قلناه أن قوله (تتبعها الرادفة) جعل حالا عن الراجفة (والثانى) أن ينصب يوم ترجف بما دل عليه (قلوب يومئذ واجفة) أى يوم ترجف وجفت القلوب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الرجفة فى اللغة تحتمل وجهين (أحدهما) الحركة لقوله (يوم ترجف

الأرض والجبال) . (الثانى) الهدة المنكرة والصوت الهائل من قولهم رجف الرعد يرجف رجفاً ورجيفاً ، وذلك تردد أصواته المنكرة وهدهدته فى السحاب ، ومنه قوله تعالى (فأخذتهم الرجفة) فعلى هذا الوجه الراجفة صيحة عظيمة فيها هول وشدة كالرعد ، وأما لرادفة فكل شيء جاء بعد شيء آخر يقال ردفه ، أى جاء بعده ، وأما القلوب الواجفة فهى المضطربة الخائفة ، يقال وجف قلبه يجف وجافا إذا اضطرب ، ومنه إيجاف الدابة ، وحملها على السير الشديد ، والمفسرين عبارات كثيرة فى تفسير الواجفة ومعناها واحد ، قالوا خائفة وجلة زائدة عن أما كنها قلقة مستوفزة مرتكضة شديدة الاضطراب غير ساكنة ، أبصار أهلها خاشعة ، وهو كقوله (خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى) إذا عرفت هذا فنقول ، اتفق جمهور المفسرين على أن هذه الأمور أحوال يوم القيامة ، وزعم أبو مسلم الأصفانى أنه ليس كذلك ونحن نذكر تفاسير المفسرين ثم نشرح قول أبى مسلم .

﴿ أما القول الأول ﴾ وهو المشهور بين الجمهور ، أن هذه الأحوال أحوال يوم القيامة فهؤلاء ذكروا وجوهاً (أحدها) أن الراجفة هى النفخة الأولى ، وسميت به إما لأن الدنيا تتزلزل وتضطرب عندها ، وإما لأن صوت تلك النفخة هى الراجفة ، كما بينا القول فيه ، والراجفة رجفة أخرى تتبع الأولى فتضطرب الأرض لإحياء الموتى كما اضطربت فى الأولى لموت الأحياء على ما ذكره تعالى فى سورة الزمر ، ثم يروى عن الرسول ﷺ أن بين النفختين أربعين عاما ، ويروى فى هذه الأربعين يمطر الله الأرض ويصير ذلك الماء عليها كالنطف ، وأن ذلك كالسبب للاحياء ، وهذا مما لا حاجة إليه فى الإعادة ، ولله أن يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد (وثانيها) الراجفة هى النفخة الأولى والرادفة هى قيام الساعة من قوله (عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون) أى القيامة التى يستعجلها الكفرة استبعاداً لها فهى رادفة لهم لاقترابها (وثالثها) الراجفة الأرض والجبال من قوله (يوم ترجف الأرض والجبال) والرادفة السماء والكواكب لأنها تنشق وتنتثر كواكبها على أثر ذلك (ورابعها) الراجفة هى الأرض تتحرك وتتزلزل والرادفة زلزلة ثانية تتبع الأولى حتى تنقطع الأرض وتفنى (القول الثانى) وهو قول أبى مسلم أن هذه الأحوال ليست أحوال يوم القيامة ، وذلك لأنا نقلنا عنه أنه فسر النازعات بنزع القوس والناشطات بخروج السهم ، والسابحات بعدو الفرس ، والسابقات بسبقها ، والمدبرات بالأمور التى تحصل أدبار ذلك الرمى والعدو ، ثم بنى على ذلك فقال الراجفة هى خيل المشركين وكذلك الرادفة ويراد بذلك طائفتان من المشركين غزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقت إحداهما الأخرى ، والقلوب الواجفة هى القلقة ، والأبصار الخاشعة هى أبصار المنافقين كقوله (الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت) كأنه قيل لما جاء خيل العدو يرجف ، وردفتها أختها اضطرب قلوب المنافقين خوفاً ، وخشعت أبصارهم جبناً وضعفاً ، ثم قالوا

يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾

(أئنا لمردودون فى الحافرة) أى نرجع إلى الدنيا حتى نتحمل هذا الخوف لأجلها وقالوا أيضاً (تلك إذاً كرة خاسرة) فأول هذا الكلام حكاية لحال من غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين وأوسطه حكاية لحال المنافقين وآخره حكاية لكلام المنافقين فى إنكار الحشر، ثم إنه سبحانه وتعالى أجاب عن كلامهم بقوله (فإنما هى زجرة واحدة، فإذا هم بالساهرة) وهذا كلام أبى مسلم واللفظ محتمل له وإن كان على خلاف قول الجمهور.

قوله تعالى: ﴿قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة﴾ اعلم أنه تعالى لم يقل القلوب يومئذ واجفة، فإنه ثبت بالدليل أن أهل الإيمان لا يخافون بل المراد منه قلوب الكفار، ومما يؤكد ذلك أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون (أئنا لمردودون فى الحافرة) وهذا كلام الكفار لا كلام المؤمنين، وقوله (أبصارها خاشعة) لأن المعلوم من حال المضطرب الخائف أن يكون نظره نظر خاشع ذليل خاضع يترقب ما ينزل به من الأمر العظيم، وفى الآية سؤالان:

﴿السؤال الأول﴾ كيف جاز الابتداء بالنكرة؟ (الجواب) قلوب مرفوعة بالابتداء وواجفة صفتها وأبصارها خاشعة خبرها فهو كقوله (لعبد مؤمن خير من مشرك).

﴿السؤال الثانى﴾ كيف صحت إضافة الأبصار إلى القلوب؟ (الجواب) معناه أبصار أصحابها بدليل قوله يقولون، ثم اعلم أنه تعالى حكى ههنا عن منكرى البعث أقوالا ثلاثة:

(أولها) قوله تعالى: ﴿يقولون أئنا لمردودن فى الحافرة﴾ يقال رجع فلان فى حافرته أى فى طريقه التى جاء فيها فحفرها أى أثر فيها بمشيه فيها جعل أثر قدميه حفراً فهى فى الحقيقة محفورة إلا أنها سميت حافرة، كما قيل (فى عيشة راضية) و (ماء دافق) أى منسوبة إلى الحفر والرضا والدفق أو كقولهم نهارك صائم، ثم قيل لمن كان فى أمر فخرج منه ثم عاد إليه رجع إلى حافرته، أى إلى طريقته وفى الحديث «إن هذا الأمر لا يترك على حاله حتى يرد على حافرته» أى على أول تأسيسه وحالته الأولى وقرأ أبو حيوة فى الحفرة، والحفرة بمعنى المحفورة يقال حفرت أسنانه، فحفرت حفراً، وهى حفرة، هذه القراءة دليل على أن الحافرة فى أصل الكلمة بمعنى المحفور، إذا عرفت هذا ظهر أن معنى الآية: أنرد إلى أول حالنا وابتداء أمرنا فنصير أحياء كما كنا.

(وثانيها) قوله تعالى: ﴿أئذا كنا عظاماً نخرة﴾ وفيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حمزة وعاصم ناخرة بألف، وقرأ الباقون نخرة بغير ألف، واختلفت الرواية عن الكسائى فقيل إنه كان لا يبالى كيف قرأها، وقيل أنه كان يقرؤها بغير الألف، ثم رجع إلى الألف، واعلم أن أبا عبيدة اختار نخرة، وقال نظرنا فى الآثار التى فيها ذكر العظام التى قد نخرت، فوجدناها كلها العظام النخرة، ولم نسمع فى شىء منها الناخرة، وأما من سواه، فقد اتفقوا

على أن الناخرة لغة صحيحه ، ثم اختلف هؤلاء على قولين (الأول) أن الناخرة والنخرة بمعنى واحد قال الأخفش هما جميعاً لغتان أيهما قرأت فحسن ، وقال الفراء الناخر والنخر سواء في المعنى بمنزلة الطامع والطمع ، والباخل والبخل ، وفي كتاب الخليل نخرت الخشبة إذا بليت فاسترخت حتى تتفتت إذا مست ، وكذلك العظم الناخر ، ثم هؤلاء الذين قالوا هما لغتان والمعنى واحد اختلفوا فقال الزجاج والفراء الناخرة أشبه الوجهين بالآية لأنها تشبه أواخر سائر الآى نحو الحافرة والساهرة ، وقال آخرون ، الناخرة والنخر كالطامع والطمع ، واللابث واللبث وفعل أبلغ من فاعل (القول الثاني) أن النخرة غير والناخرة غير ، أما النخرة فهو من نخر العظم ينخر فهو نخر مثل عفن يعفن فهو عفن ، وذلك إذا بلى وصار بحيث لو لمسته لتفتت ، وأما الناخرة فهى العظام الفارغة التي يحصل من هبوب الريح فيها صوت كالنخير ، وعلى هذا الناخرة من النخير بمعنى الصوت كنخير النائم والمخنوق لا من النخر الذي هو البلى .

﴿ المسألة الأولى ﴾ إذاً منصوب بمحذوف تقدير إذا كنا عظاماً نرد ونبعث .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن حاصل هذه الشبهة أن الذي يشير إليه كل أحد إلى نفسه بقوله أنا هو هذا الجسم المبني بهذه البنية المخصوصة ، فإذا مات الإنسان فقد بطل مزاجه وفسد تركيبه فتمتنع إعادته لوجوه (أحدها) أنه لا يكون الإنسان العائد هو الإنسان الأول إلا إذا دخل التركيب الأول في الوجود مرة أخرى ، وذلك قول بإعادة عين ما عدم أولا ، وهذا محال لأن الذي عدم لم يبق له عين ولا ذات ولا خصوصية ، فإذا دخل شيء آخر في الوجود استحال أيقال بأن العائد هو عين ما فنى أولا (وثانيها) أن تلك الأجزاء تصير تراباً وتتفرق وتختلط بأجزاء كل الأرض وكل المياه وكل الهواء فتميز تلك الأجزاء بأعيانها عن كل هذه الأشياء محال (وثالثها) أن الأجزاء الترابية باردة يابسة قشفة فتولد الإنسان الذي لابد وأن يكون حاراً رطباً في مزاجه عنها محال ، هذا تمام تقرير كلام هؤلاء الذين احتجوا على إنكار البعث بقولهم (أئذا كنا عظاماً نخرة) (والجواب) عن هذه الشبهة من وجوه (أولها) وهو الأقوى : لا نسلم أن المشار إليه لكل أحد بقوله أنا هو هذا الهيكل ، ثم إن الذي يدل على فساده وجهان (الأول) أن أجزاء هذا الهيكل في الذوبان والتبدل ، والذي يشير إليه كل أحد إلى نفسه بقوله أنا ليس في التبدل والمتبدل مغاير لما هو غير متبدل (والثاني) أن الانسان قد يعرف أنه هو حال كونه غافلا عن أعضائه الظاهرة والباطنة ، والمشعور به مغاير لما هو غير مشعور به وإلا لاجتمع النفي والإثبات على الشيء الواحد وهو محال ، فثبت أن المشار إليه لكل أحد بقوله أنا ليس هو هذا الهيكل ، ثم ههنا ثلاث احتمالات (أحدها) أن يكون ذلك الشيء موجوداً قائماً بنفسه ليس بجسم ولا بجسماني على ما هو مذهب طائفة عظيمة من الفلاسفة ومن المسلمين (وثانيها) أن يكون جسما مخالفاً بالماهية لهذه الأجسام القابلة للانحلال والفساد سارية فيها سريان النار في الفحم وسريان الدهن في السمسم وسريان ماء الورد

قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ  فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

فى جرم الورد فإذا فسد هذا الهيكل تقاصت تلك الأجزاء وبقيت حية مدركة عاقلة ، إما فى الشقاوة أو فى السعادة (وثالثها) أن يقال إنه جسم مساو لهذه الأجسام فى الماهية إلا أن الله تعالى خصها بالبقاء والاستمرار من أول حال تكون شخص فى الوجود إلى آخر عمره ، وأما سائر الأجزاء المتبدلة تارة بالزيادة وأخرى بالنقصان فهى غير داخلة فى المشار إليه بقوله أنا فعند الموت تنفصل تلك الأجزاء . وتبقى حية ، إما فى السعادة أو فى الشقاوة ، وإذا ظهرت هذه الاحتمالات ثبت أنه لا يلزم من فساد البدن وتفرق أجزائه فساد ماهو الإنسان حقيقة ، وهذا مقام حسن متين تنقطع به جميع شبهات منكرى البعث . وعلى هذا التقدير لا يكون لصيرورة العظام نخرة بالية متفرقة تأثير فى دفع الحشر والنشر البتة ، سلمنا على سبيل المسامحة أن الإنسان هو مجموع هذا الهيكل ، فلم قلتم إن الإعادة ممتنعة ؟ قوله [أولا] المعدوم لا يعاد : قلنا أليس أن حال عدمه لم يمتنع عندكم صحة الحكم عليه بأنه يمتنع عوده ، فلم لا يجوز أن لا يمتنع على قولنا أيضاً صحة الحكم عليه بالعود ، قول (ثانياً) الأجزاء القليلة مختلطة بأجزاء العناصر الأربعة ، قلنا لكن ثبت أن خالق العالم عالم بجميع الجزئيات ، وقادر على كل الممكنات فيصح منه جمعها بأعيانها . وإعادة الحياة إليها . قوله (ثالثاً) الأجسام القشفة اليابسة لا تقبل الحياة . قلنا نرى السمندل ، يعيش فى النار ، والنعامة تبتلع الحديدة المحماة ، والحيات الكبار العظام متولدة فى الثلوج ، فبطل الاعتماد على الاستقراء ، والله الهادى إلى الصدق والصواب .

(النوع الثالث) من الكلمات التى حكاها الله تعالى عن منكرى البعث ﴿ قالوا تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ والمعنى كرة منسوبة إلى الخسران ، كقولك تجارة رابحة ، أو خاسر أصحابها ، والمعنى أنها إن صحت فنحن إذا خاسرون لتكذيبنا ، وهذا منهم استهزاء .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذه الكلمات قال ﴿ فإنما هى زجرة واحدة ، فإذا هم بالساهرة ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الفاء فى قوله (فإذا هم) متعلق بمحذوف معناه لا تستصعبوها فإنما هى زجرة واحدة ، يعنى لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله فإنها سهلة هينة فى قدرته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ يقال زجر البعير إذا صاح عليه ، والمراد من هذه الصيحة النفخة الثانية وهى صيحة إسرافيل ، قال المفسرون ، يحييهم الله فى بطون الأرض فيسمعونها فيقومون ، ونظير هذه الآية قوله تعالى (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الساهرة الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك لوجهين (الأول) أن

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾
ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾

ساكنها لا ينام خوفاً منها (الثانى) أن السراب يجرى فيها من قولهم عين ساهرة جارية الماء ، وعندى فيه وجه (ثالث) وهى أن الأرض إنما تسمى ساهرة لأن من شدة الخوف فيها يطير النوم عن الإنسان . فتلك الأرض التى يجتمع الكفار فيها فى موقف القيامة يكونون فيها فى أشد الخوف ، فسميت تلك الأرض ساهرة لهذا السبب ، ثم اختلفوا من وجه آخر فقال بعضهم هى أرض الدنيا ، وقال آخرون هى أرض الآخرة لأنهم عند الزجرة والصيحة ينقلون أفواجاً إلى أرض الآخرة ولعل هذا الوجه أقرب .

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث موسى ، إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى ، إذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ فيه مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن وجه المناسبة بين هذه القصة وبين ماقبلها من وجهين : (الأول) أنه تعالى حكى عن الكفار إصرارهم على إنكار البعث حتى انتهوا فى ذلك الإنكار إلى حد الاستهزاء فى قولهم (تلك إذاً كرة خاسرة) وكان ذلك يشق على محمد صلى الله عليه وسلم فذكر قصة موسى عليه السلام ، وبين أنه تحمل المشقة الكثيرة فى دعوة فرعون ليكون ذلك كالتسلية للرسول ﷺ (الثانى) أن فرعون كان أقوى من كفار قريش وأكثر جمعاً وأشد شوكة ، فلما تمرد على موسى أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فكذلك هؤلاء المشركون فى تمردهم عليك إن أصروا أخذهم الله وجعلهم نكالا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (هل أتاك) يحتمل أن يكون معناه أليس قد (أتاك حديث موسى) هذا أن كان قد أتاه ذلك قبل هذا الكلام ، أما إن لم يكن قد أتاه فقد يجوز أن يقال (هل أتاك) كذا ، أم أنا أخبرك به فان فيه عبرة لمن يخشى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الوادى المقدس المبارك المطهر ، وفى قوله (طوى) وجوه : (أحدها) أنه اسم وادى بالشام وهو عند الطور الذى أقسم الله به فى قوله (والطور وكتاب مسطور) وقوله (وناديناه من جانب الطور الأيمن) (والثانى) أنه بمعنى يارجل بالعبرانية ، فكأنه قال يارجل (اذهب إلى فرعون) ، وهو قول ابن عباس (والثالث) أن يكون قوله (طوى) أى ناداه (طوى) من الليلة (اذهب إلى فرعون) لأنك تقول جئتك بعد (طوى) أى بعد ساعة من الليل (والرابع) أن يكون المعنى بالوادى المقدس الذى طوى أى بورك فيه مرتين .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (طوى) بضم الطاء غير منون ، وقرأ

فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾

الباقون بضم الطاء منوناً ، وروى عن أبى عمرو . طوى بكسر الطاء ، وطوى مثل ثنى ، وهما اسمان للشيء المثنى ، والطى بمعنى الثنى ، أى ثنيت فى البركة والتقديس ، قال الفراء (طوى) واد بين المدينة ومصر ، فمن صرفه قال هو ذكر سمينا به ذكراً ، ومن لم يصرفه جعله معدولا عن جهته كعمرو زفر ، ثم قال : والصرف أحب إلى إذ لم أجد فى المعدول نظيراً ، أى لم أجد اسما من الواو والياء عدل عن فاعلة إلى فعل غير (طوى) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ تقدير الآية : إذ ناداه ربه وقال اذهب إلى فرعون ، وفى قراءة عبد الله أن أذهب ، لأن فى النداء معنى القول . وأما أن ذلك النداء كان بإسماع الكلام القديم ، أو بإسماع الحرف والصوت ، وإن كان على هذا الوجه فكيف عرف موسى أنه كلام الله . فكل ذلك قد تقدم فى سورة (طه) .

﴿ المسألة السادسة ﴾ أن سائر الآيات تدل على أنه تعالى فى أول ما نادى موسى عليه السلام ذكر له أشياء كثيرة ، كقوله فى سورة طه (نودى ياموسى إنى أنا ربك) إلى قوله (لنريك من آياتنا الكبرى ، اذهب إلى فرعون إنه طغى) فدل ذلك على أن قوله ههنا (اذهب إلى فرعون إنه طغى) من جملة ما ناداه به ربه ، لا أنه كل ما ناداه به ، وأيضا ليس الغرض أنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى فرعون فقط ، بل إلى كل من كان فى ذلك الطرف ، إلا أنه خصه بالذكر ، لأن دعوته جارية مجرى دعوة كل ذلك القوم .

﴿ المسألة السابعة ﴾ الطغيان مجاوزة الحد ، ثم انه تعالى لم يبين أنه تعدى فى أى شىء ، فلهذا قال بعض المفسرين : معناه أنه تكبر على الله وكفر به ، وقال آخرون : إنه طغى على بنى إسرائيل ، والأولى عندى الجمع بين الأمرين ، فالمعنى أنه طغى على الخالق بأن كفر به ، وطغى على الخلق بأن تكبر عليهم واستعبدهم ، وكما أن كمال العبودية ليس إلا صدق المعاملة مع الخالق ومع الخلق ، فكذا كمال الطغيان ليس إلا الجمع بين سوء المعاملة مع الخالق ومع الخلق .

واعلم أنه تعالى لما بعثه إلى فرعون لقنه كلامين ليخاطبه بهما :

(فالأول) قوله تعالى ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يقال هل لك فى كذا ، وهل لك إلى كذا ، كما تقول : هل ترغب فيه ، وهل ترغب إليه ، قال الواحدى : المبتدأ محذوف فى اللفظ مراد فى المعنى ، والتقدير : هل لك إلى تزكى حاجة أو إربه ، قال الشاعر :

فهل لكم فيها إلى فإننى بصير بما أعيا النطاسى حذيما

ويحتمل أن يكون التقدير : هل لك سبيل إلى أن تزكى .

وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ الزكى الطاهر من العيوب كلها ، قال (أقتلت نفساً زكية) وقال (قد أفلح من زكاها) وهذه الكلمة جامعة لكل مايدعوه إليه ، لأن المراد هل لك إلى أن تفعل ما تصير به زاكياً عن كل مالا ينبغى ، وذلك يجمع كل ما يتصل بالتوحيد والشرائع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فيه قراءتان : التشديد على إدغام تاء التفعل فى الزاى لتقاربهما والتخفيف .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ المعتزلة تمسكوا به فى إبطال كون الله تعالى خالقاً لفعل العبد بهذه الآية ، فإن هذا استفهام على سبيل التقرير ، أى لك سبيل إلى أن تزكى ، ولو كان ذلك بفعل الله تعالى لانقلب الكلام على موسى ، والجواب عن أمثاله تقدم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أنه لما قال لهما (فقولا له قولا ليناً) فكأنه تعالى رتب لهما ذلك الكلام اللين الرقيق ، وهذا يدل على أنه لا بد فى الدعوة إلى الله من اللين والرفق وترك الغلظة ، ولهذا قال لمحمد ﷺ (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) ويدل على أن الذين يخاشنون الناس ويبالغون فى التعصب ، كأنهم على ضد ما أمر الله به أنبياءه ورسله .

قوله تعالى : ﴿ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القائلون بأن معرفة الله لا تستفاد إلا من الهادى تمسكوا بهذه الآية ، وقالوا إنها صريحة فى أنه يهديه إلى معرفة الله ، ثم قالوا : ومما يدل على أن هذا هو المقصود الأعظم من بعثة الرسل ، أمران (الأول) أن قوله (هل لك إلى أن تزكى) يتناول جميع الأمور التى لابد للمبعوث إليه منها ، فيدخل فيه هذه الهداية فلما أعاده بعد ذلك علم أنه هو المقصود الأعظم من البعثة (والثانى) أن موسى ختم كلامه عليه ، وذلك ينبه أيضاً على أنه أشرف المقاصد من البعثة (والجواب) أنا لا نمنع أن يكون للتنبيه والإشارة معونة فى الكشف عن الحق إنما النزاع فى إنكم تقولون يستحيل حصوله إلا من المعلم ونحن لانحل ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ دلت الآية على أن معرفة الله مقدمة على طاعته ، لأنه ذكر الهداية وجعل الخشية مؤخرة عنها ومفرعة عليها ، ونظيره قوله تعالى فى أول النحل (أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) وفى طه (إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلت الآية على أن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة . قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) أى العلماء به ، ودلت الآية على أن الخشية ملاك الخيرات ، لأن من خشى الله أتى منه كل خير ، ومن أمن اجترأ على كل شر ، ومنه قوله عليه السلام « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل » .

فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١)

قوله تعالى : ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الفاء فى (فأراه) معطوف على محذوف معلوم ، يعنى فذهب فأراه ، كقوله (فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت) أى فضرب فانفجرت .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى الآية الكبرى على ثلاثة أقوال (الأول) قال مقاتل والكلبى : هى اليد ، لقوله فى طه (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ، لنريك من آياتنا الكبرى) (القول الثانى) قال عطاء : هى العصا ، لأنه ليس فى اليد إلا انقلاب لونه إلى لون آخر ، وهذا المعنى كان حاصلا فى العصا . لأنها لما انقلبت حية فلا بد وأن يكون قد تغير اللون الأول ، فإذاً كل ما فى اليد فهو حاصل فى العصا ، ثم حصل فى العصا أمور أخرى أزيد من ذلك ، منها حصول الحياة فى الجرم الجمادى ، ومنها تزايد أجزائه وأجسامه ، ومنها حصول القدرة الكبيرة والقوة الشديدة ، ومنها أنها كانت ابتلعت أشياء كثيرة وكأنها فنيت ، ومنها زوال الحياة والقدرة عنها ، وفناء تلك الأجزاء التى حصل عظمها ، وزوال ذلك اللون والشكل اللذين بهما صارت العصا حية ، وكل واحد من هذه الوجوه كان معجزاً مستقلا فى نفسه ، فعلمنا أن الآية الكبرى هى العصا (والقول الثالث) فى هذه المسألة قول مجاهد ، وهو أن المراد من الآية الكبرى مجموع اليد والعصا ، وذلك لأن سائر الآيات دلت على أن أول ما أظهر موسى عليه السلام لفرعون هو العصا ، ثم أتبعه باليد ، فوجب أن يكون المراد من الآية الكبرى مجموعهما .

(أحدها) قوله تعالى ﴿ فكذب وعصى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ معنى قوله (فكذب) أنه كذب بدلالة ذلك المعجز على صدقه . واعلم أن القدح فى دلالة المعجزة على الصدق إما لاعتقاد أنه يمكن معارضته ، أو لأنه وإن امتنعت معارضته لكنه ليس فعلا لله بل لغيره ، إما فعل جنى أو فعل ملك ، أو إن كان فعلا لله تعالى لكنه ما فعله لغرض التصديق ، أو إن كان فعله لغرض التصديق لكنه لا يلزم صدق المدعى ، فإنه لايقبح من الله شىء البتة ، فهذه مجامع الطعن فى دلالة المعجز على الصدق ، وما بعد الآية يدل على أن فرعون إنما منع من دلالته عن الصدق لاعتقاده أنه يمكن معارضته بدليل قوله (فحشر فنادى) وهو كقوله (فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى الآية سؤال وهو أن كل أحد يعلم أن كل من كذب الله فقد عصى ، فما الفائدة فى قوله فكذب وعصى ؟ (والجواب) كذب بالقلب واللسان ، وعصى بأن أظهر التمرد والتجبر .

ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥)

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذا الذى وصفه الله تعالى به من التكذيب والمعصية مغاير لما كان حاصلا قبل ذلك ، لأن تكذيبه لموسى عليه السلام وقد دعاه وأظهر هذه المعجزة . يوفى على ما تقدم من التكذيب ومعصيته بترك القبول منه ، والحال هذه مخالفة لمعصيته من قبل ذلك .

(وثانيها) قوله ﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ وفيه وجوه (أحدها) أنه لما رأى الثعبان أدبر مرعوباً يسعى يسرع فى مشيه ، قال الحسن كان رجلا طياشاً خفيفاً (وثانيها) تولى عن موسى يسعى ويجتهد فى مكايدته (وثالثها) أن يكون المعنى . ثم أقبل يسعى ، كما يقال ، فلان أقبل يفعل كذا ، بمعنى أنشأ يفعل ، فوضع أدبر فوضع أقبل لئلا يوصف بالإقبال ،

(وثالثها) قوله ﴿ فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ فحشر فجمع السحرة كقوله (فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين) فنادى فى المقام الذى اجتمعوا فيه معه ، أو أمر منادياً فنادى فى الناس بذلك ، وقيل قام فيهم خطيباً فقال تلك الكلمة ، وعن ابن عباس كلمته الأولى (ما علمت لكم من إله غيرى) والآخرة (أنا ربكم الأعلى) .

واعلم أنا بينا فى سورة (طه) أنه لا يجوز أن يعتقد الإنسان فى نفسه كونه خالقاً للسموات والأرض والجبال والنبات والحيوان والإنسان ، فإن العلم بفساد ذلك ضرورى ، فمن تشكك فيه كان مجنوناً ، ولو كان مجنوناً لما جاز من الله بعثة الأنبياء والرسل إليه ، بل الرجل كان دهرياً منكراً للصانع والحشر والنشر ، وكان يقول ليس لأحد عليكم أمر ولا نهى إلا لى ، فأنا ربكم بمعنى مربيكم والمحسن إليكم ، وليس للعالم إله حتى يكون له عليكم أمر ونهى ، أو يبعث إليكم رسولا ، قال القاضى وقد كان الأليق به بعد ظهور خزيه عند انقلاب العصا حية ، أن لا يقول هذا القول . لأن عند ظهور الذلة والعجز ، كيف يليق أن يقول (أنا ربكم الأعلى) فدلت هذه الآية على أنه فى ذلك الوقت صار كالمعتوه الذى لا يدرى ما يقول .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنه أفعاله وأقواله أتبعه بما عامله به وهو قوله تعالى : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ وفيه مسألتان .

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى نصب نكال وجهين (الأول) قال الزجاج إنه مصدر مؤكد لأن معنى أخذه الله ، نكل به الله به ، نكال الآخرة والأولى . لأن أخذه ونكله متقاربان ، وهو كما يقال أدعه تركا شديداً لأن أدعه وأتركه سواء ، ونظيره قوله (إن أخذه أليم شديد) ، (الثانى) قال الفراء يريد أخذه الله أخذاً نكالا للآخرة والأولى ، والنكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر المفسرون فى هذه الآية وجوهاً (أحدها) أن الآخرة والأولى صفة لكلمتى فرعون إحداهما قوله (ما علمت لكم من إله غيرى) والأخرى قوله (أنا ربكم الأعلى) قالوا وكان بينهما أربعون سنة ، وهذا قول مجاهد والشعبى وسعيد بن جبير ومقاتل ، ورواية عطاء والكلبى عن ابن عباس ، والمقصود التنبيه على أنه ما أخذه بكلمته الأولى فى الحال ، بل أمهله أربعين سنة ، فلما ذكر الثانية أخذ بهما ، وهذا تنبيه على أنه تعالى يمهل ولا يهمل (الثانى) وهو قول الحسن وقتادة (نكال الآخرة والأولى) أى عذبه فى الآخرة ، وأغرقه فى الدنيا (الثالث) الآخرة هى قوله (أنا ربكم الأعلى) والأولى هى تكذيبه موسى حين أراه الآية ، قال القفال ، وهذا كأنه هو الأظهر ، لأنه تعالى قال (فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى ، فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى) فذكر المعصيتين ، ثم قال (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) فظهر أن المراد أنه عاقبه على هذين الأمرين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الليث (النكال) اسم لمن جعل نكالا لغيره ، وهو الذى إذا رآه أو بلغه خاف أن يعمل عمله ، وأصل الكلمة من الامتناع ، ومنه النكول عن اليمين ، وقيل للقيد نكل لأنه يمنع ، فالنكال من العقوبة هو أعظم حتى يمتنع من سمع به عن ارتكاب مثل ذلك الذنب الذى وقع التنكيل به ، وهو فى العرف يقع على ما يفتضح به صاحبه ويعتبر به غيره ، والله أعلم .

ثم إنه تعالى ختم هذه القصة بقوله تعالى ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ والمعنى أن فيما اقتصصناه من أمر موسى وفرعون ، وما أحله الله بفرعون من الخزى ، ورزق موسى من العلو والنصر عبرة لمن يخشى وذلك أن يدع التمرد على الله تعالى ، والتكذيب لأنبيائه خوفاً من أن ينزل به ما نزل بفرعون ، وعلماً بأن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله . فاعتبروا معاشر المكذبين لمحمد بما ذكرناه ، أى اعلموا أنكم إن شاركتموهم فى المعنى الجالب للعقاب ، شاركتموهم فى حلول العقاب بكم .

ثم اعلم أنه تعالى لما ختم هذه القصة رجع إلى مخاطبة منكرى البعث ، فقال ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى المقصود من هذا الاستدلال وجهان (الأول) أنه استدلال على منكرى البعث فقال (أأنتم أشد خلقاً أم السماء) فنبههم على أمر يعلم بالمشاهدة . وذلك لأن خلقة الإنسان على صغره وضعفه ، إذا أضيف إلى خلق السماء على عظمها وعظم أحوالها يسير ، فبين تعالى أن خلق السماء أعظم ، وإذا كان كذلك فخلقهم على وجه الإعادة أولى أن يكون مقدوراً لله تعالى فكيف ينكرون ذلك ؟ ونظيره قوله (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على

بَنَاهَا ﴿٢٧﴾

أن يخلق مثلهم) وقوله (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) والمعنى أخلقكم بعد الموت أشد أم خلق السماء أى عندكم ، وفى تقديركم ، فإن كلا الأمرين بالنسبة إلى قدرة الله واحد (والثانى) أن المقصود من هذا الاستدلال بيان كونهم مخلوقين ، وهذا القول ضعيف لوجهين (أحدهما) أن من أنكر كون الإنسان مخلوقاً فبأن ينكر[ه] فى السماء كان أولى (وثانيهما) أن أول السورة كان فى بيان مسألة الحشر والنشر ، فحمل هذا الكلام عليه أولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الكسائى والفراء والزجاج ، هذا الكلام تم عند قوله (أم السماء) .

ثم قوله تعالى ﴿ بناها ﴾ ابتداء كلام آخر ، وعند أبى حاتم الوقف على قوله (بناها) قال لأنه من صلة السماء ، والتقدير : أم السماء التى بناها . فحذف التى ، ومثل هذا الحذف جائز ، قال القفال : يقال : الرجل جاءك عاقل ، أى الرجل الذى جاءك عاقل إذا ثبت أن هذا جائز فى اللغة فنقول الدليل على أن قوله (بناها) صلة لما قبله أنه لو لم يكن صلة لكان صفة ، فقوله (بناها) صفة ، ثم قوله (رفع سمكها) صفة ، فقد توالت صفتان لا تعلق لإحداهما بالأخرى ، فكان يجب إدخال العاطف فيما بينهما ، كما فى قوله (وأغطش ليلها) فلما لم يكن كذلك علمنا أن قوله (بناها) صلة للسماء ، ثم قال (رفع سمكها) ابتداء بذكر صفته ، وللفراء أن يحتج على قوله بأنه لو كان قوله (بناها) صلة للسماء لكان التقدير : أم السماء التى بناها ، وهذا يقتضى وجود سماء ما بناها الله ، وذلك باطل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الذى يدل على أنه تعالى هو الذى بنى السماء وجوه (أحدها) أن السماء جسم ، وكل جسم محدث ، لأن الجسم لو كان أزلياً لكان فى الأزل إما أن يكون متحركا أو ساكنا ، والقسمان باطلان ، فالقول بكون الجسم أزلياً باطل . أما الحصر فلأنه إما أن يكون مستقراً حيث هو فيكون ساكناً ، أو لا يكون مستقراً حيث هو فيكون متحركا ، وإنما قلنا إنه يستحيل أن يكون متحركا ، لأن ماهية الحركة تقتضى المسبوقية بالغير ، وماهية الأزل تنافى المسبوقية بالغير والجمع بينهما محال ، وإنما قلنا إنه يستحيل أن يكون ساكناً ، لأن السكون وصف ثبوتى وهو ممكن الزوال ، وكل ممكن الزوال مفتقر إلى الفاعل المختار ، وكل ما كان كذلك فهو محدث ، فكل سكون محدث فيمتنع أن يكون أزلياً ، وإنما قلنا إن السكون وصف ثبوتى ، لأنه يتبدل كون الجسم متحركا بكونه ساكنا مع بقاء ذاته ، فأحدهما لابد وأن يكون أمراً ثبوتياً ، فإن كان الثبوتى هو السكون فقد حصل المقصود ، وأن كان الثبوتى هو الحركة وجب أيضاً أن يكون السكون ثبوتياً ، لأن الحركة عبارة عن الحصول فى المكان بعد أن كان فى غيره ، والسكون عبارة عن الحصول فى المكان بعد أن كان فيه بعينه ، فالتفاوت بين الحركة والسكون ليس فى

الماهية ، بل فى المسبوقية بالغير وعدم المسبوقية بالغير ، وذلك وصف عارضى خارجى عن الماهية ، وإذا كان كذلك فإذا ثبت أن تلك الماهية أمر وجودى فى إحدى الصورتين وجب أن تكون كذلك فى سورة أخرى ، وإنما قلنا إن سكون السماء جائز الزوال ، لأنه لو كان واجباً لذاته لامتنع زواله ، فكان يجب أن لا تتحرك السماء لكنا نراها الآن متحركة ، فعلمنا أنها لو كانت ساكنة فى الأزل ، لكان ذلك السكون جائز الزوال ، وإنما قلنا إن ذلك السكون لما كان ممكناً لذاته ، افتقر إلى الفاعل المختار لأنه لما كان ممكناً لذاته ، فلا بد له من مؤثر ، وذلك المؤثر لا يجوز أن يكون موجباً ، لأن ذلك الموجب إن كان واجبا ، وكان غنياً فى إيجابه لذلك المعلول عن شرط لزم من دوامه دوام ذلك الأثر ، فكان يجب أن لا يزول للسكون وإن كان واجباً ومفتقراً فى إيجابه لذلك المعلول إلى شرط واجب لذاته ، لزم من دوام العلة ودوام الشرط دوام المعلول ، أما إن كان الموجب غير واجب لذاته ، أوكان شرط إيجابه غير واجب لذاته كان الكلام فيه كالكلام فى الأول ، فيلزم التسلسل ، وهو محال أو الإنتهاء إلى موجب واجب لذاته ، وإلى شرط واجب لذاته ، و حينئذ يعود الإلزام الأول ، فثبت أن ذلك المؤثر لا بد وأن يكون فاعلا مختاراً ، فإذاً كل سكون ، فهو فعل فاعل مختار ، وكل ماكان كذلك فهو محدث ، لأن المختار إنما يفعل بواسطة القصد ، والقصد إلى تكوين الكائن ، وتحصيل الحاصل محال ، فثبت أن كل سكون فهو محدث ، فثبت أنه يمتنع أن يكون الجسم فى الأزل لا متحركا ولا ساكناً ، فهو إذاً غير موجود فى الأزل ، فهو محدث ، وإذاكان محدثاً افتقر فى ذاته ، وفى تركيب أجزائه إلى موجد ، وذلك هو الله تعالى ، فثبت بالعقل أن بانى السماء هو الله تعالى .

﴿ الحجة الثانية ﴾ كل ماسوى الواجب فهو ممكن وكل ممكن محدث وكل محدث فله صانع ، إنما قلنا كل ماسوى الواجب ممكن ، لأنا لو فرضنا موجودين واجبين لذاتيهما لاشتركا فى الوجود ولتباينا بالتعيين ، فيكون كل منهما مركبا مما به المشاركة ، ومما به المايزة ، وكل مركب مفتقر إلى جزئه وجزؤه غيره فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره ، وكل مفتقر إلى غيره ممكن لذاته ، فكل واحد من الواجبين بالذات ممكن بالذات هذا خلف ، ثم ينقل الكلام إلى ذينك الجزأين ، فإن كانا واجبين ، كان كل واحد من تلك الأجزاء مركباً ويلزم التسلسل ، وإن لم يكونا واجبين كان المفتقر إليهما أولى بعدم الوجود فثبت أن ماعدا الواجب ممكن وكل ممكن فله مؤثر وكل ما افتقر إلى المؤثر محدث ، لأن الافتقار إلى المؤثر لايمكن أن يتحقق حال البقاء لاستحالة إيجاد الموجد ، فلا بد وأن يكون إما حال الحدوث أو حال العدم ، وعلى التقديرين فالحدوث لازم فثبت أن ما سوى الواجب محدث وكل محدث فلابد له من محدث ، فلا بد للسماء من بان .

﴿ الحجة الثالثة ﴾ صريح العقل يشهد بأن جرم السماء لايمتنع أن يكون أكبر مما هو الآن بمقدار خردلة ، ولا يمتنع أن يكون أصغر بمقدار خردلة ، فاختصاص هذا المقدار بالوقوع دون

رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾

الأزيد والأنقص ، لابد وأن يكون بمخصص ، فثبت أنه لابد للسماء من بان (فإن قيل) لم لايجوز أن يقال إنه تعالى خلق شيئاً وأعطاه قدرة يتمكن ذلك المخلوق بتلك القدرة من خلق الأجسام فيكون خالق السماء وبانيها هو ذلك الشيء ؟ (الجواب) من العلماء من قال المعلوم بالعقل أنه لابد للسماء من محدث وأنه لابد من الانتهاء آخر الأمر إلى قديم والإله قديم واجب الوجود لذاته واحد وهو الله سبحانه وتعالى ، فأما نفي الواسطة فإنما يعلم بالسمع فقوله في هذه الآية (بناها) يدل على أن باني السماء هو الله لاغيره ، ومنهم من قال بل العقل يدل على بطلانه لأنه لما ثبت أن كل ماعداه محدث ثبت أنه قادر لاموجب ، والذي كان مقدوراً له إنما صح كونه مقدوراً له بكونه ممكناً ، فانك لو رفعت الإمكان بقي الوجوب أو الامتناع وهما يحيلان المقدورية ، وإذا كان ما لأجله صح في البعض أن يكون مقدوراً لله وهو الإمكان والإمكان عام في الممكنات وجب أن يحصل في كل الممكنات صحة أن تكون مقدورة لله تعالى ، وإذا ثبت ذلك ونسبة قدرته إلى الكل على السوية وجب أن يكون قادراً على الكل ، وإذا ثبت أن الله قادر على الممكنات فلو قدرنا قادراً آخر قدر على بعض الممكنات ، لزم وقوع مقدور واحد بين قادرين من جهة واحدة ، وذلك محال ، لأنه إما أن يقع بأحدهما دون الآخر وهو محال ، لأنهما لما كانا مستقلين بالاقتضاء فليس وقوعه بهذا أولى من وقوعه بذاك أو بهما معاً ، وهو أيضاً محال لأنه يستغني بكل واحد منهما عن كل واحد منهما ، فيكون محتاجا إليهما معاً وغنياً عنهما معاً وهو محال ، فثبت بهذا أنه لا يمكن وقوع ممكن آخر بسبب آخر سوى قدرة الله تعالى ، وهذا الكلام جيد ، لكن على قول من لايثبت في الوجود مؤثراً سوى الواحد ، فهذا جملة ما في هذا الباب .

واعلم أنه تعالى لما بين في السماء أنه بناها ، بين بعد ذلك أنه كيف بناها ، وشرح تلك الكيفية من وجوه :

(أولها) ما يتعلق بالمكان ، فقال تعالى ﴿ رفع سمكها ﴾ .

واعلم أن امتداد الشيء إذا أخذ من أعلاه إلى أسفله سمي عمقاً ، وإذا أخذ من أسفله إلى أعلاه سمي سمكا ، فالمراد برفع سمكها شدة علوها حتى ذكروا أن ما بين الأرض وبينها مسيرة خمسمائة عام ، وقد بين أصحاب الهيئة مقادير الأجرام الفلكية وأبعاد ما بين كل واحد منها وبين الأرض . وقال آخرون : بل المراد : رفع سمكها من غير عمد . وذلك مما لا يصح إلا من الله تعالى .

(الصفة الثانية) قوله تعالى ﴿ فسواها ﴾ وفيه وجهان (الأول) المراد تسوية تأليفها ، وقيل بل المراد نفي الشقوق عنها ، كقوله (ماترى في خلق الرحمن من تفاوت) والقائلون بالقول الأول قالوا (فسواها) عام فلا يجوز تخصيصه بالتسوية في بعض الأشياء ، ثم قالوا هذا يدل على كون

وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾

السماء كرة ، لأنه لو لم يكن كرة لكان بعض جوانبة سطحاً ، والبعض زاوية ، والبعض خطاً ، ولكان بعض أجزائه أقرب إلينا ، والبعض أبعد ، فلا تكون التسوية الحقيقة حاصلة ، فوجب أن يكون كرة حتى تكون التسوية الحقيقة حاصلة ، ثم قالوا لما ثبت أنها محدثة مفتقرة إلى فاعل مختار ، فأى ضرر فى الدين ينشأ من كونها كرة ؟ .

(الصفة الثالثة) قوله تعالى ﴿ وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أغطش قد يجىء لازماً ، يقال أغطش الليل إذا صار مظلماً ويجىء متعدياً يقال أغطشه الله إذا جعله مظلماً ، والغطش الظلمة ، والأغطش شبه الأعمش ، ثم ههنا سؤال وهو أن الليل اسم لزمان الظلمة الحاصلة بسبب غروب الشمس ، فقوله (وأغطش ليلها) يرجع معناه إلى أنه جعل المظلم مظلماً ، وهو بعيد (والجواب) معناه أن الظلمة الحاصلة فى ذلك الزمان إنما حصلت بتدبير الله وتقديره : وحينئذ لا يبقى الإشكال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (وأخرج ضحاها) أى أخرج نهاراً ، وإنما عبر عن النهار بالضحى ، لأن الضحى أكمل أجزاء النهار فى النور والضوء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما أضاف الليل والنهار إلى السماء ، لأن الليل والنهار إنما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها ، ثم غروبها وطلوعها إنما يحصلان بسبب حركة الفلك ، فلهذا السبب أضاف الليل والنهار إلى السماء ، ثم إنه تعالى لما وصف كيفية خلق السماء أتبعه بكيفية خلق الأرض وذلك من وجوه :

(الصفة الأولى) قوله تعالى ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ دحاها بسطها ، قال زيد بن عمرو بن نفيل :

دحاها فلما رآها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا

وقال أمية بن أبى الصلت :

دحوت البلاد فسويتها وأنت على طيها قادر

قال أهل اللغة فى هذه اللفظة لغتان دحوت أدحو ، ودحيت أدحى ، ومثله صفوت وصفيت ولحوت العود ولحيته وسأوت الرجل وسأيته وبأوت عليه وبأيت ، وفى حديث على عليه السلام « اللهم داحى المدحيات » أى باسط الأرضين السبع وهو المدحوات أيضاً ، وقيل أصل الدحو الإزالة للشىء من مكان إلى مكان ، ومنه يقال : إن الصبى يدحو بالكرة أى يقذفها على وجه الارض ، وأدحى النعامة موضعه الذى يكون فيه أى بطنه وأزلت ما فيه من حصى ، حتى يتمهد له ، وهذا يدل على أن معنى الدحو يرجع إلى الإزالة والتمهيد .

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١)

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر الآية يقتضى كون الأرض بعد السماء ، وقوله فى حم السجدة ، (ثم استوى إلى السماء) يقتضى كون السماء بعد الأرض ، وقد ذكرنا هذه المسألة فى سورة البقرة فى تفسير قوله (ثم استوى إلى السماء) ولا بأس بأن نعيد بعض تلك الوجوه (أحدها) أن الله تعالى خلق الأرض أولا ثم خلق السماء ثانياً ثم دحى الأرض أى بسطها ثالثاً ، وذلك لأنها كانت أولا كالكرة المجتمعة ، ثم إن الله تعالى مدها وبسطها ، فان قيل الدلائل الاعتبارية دلت على أن الأرض الآن كرة أيضاً ، وإشكال آخر وهو أن الجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوى ، فيستحيل أن يكون هذا الجسم مخلوقاً ولا يكون ظاهره مدحواً مبسوطا (وثانيها) أن لا يكون معنى قوله (دحاها) مجرد البسط ، بل يكون المراد أنه بسطها بسطاً مهيأً لنبات الأقوات وهذا هو الذى بينه بقوله (أخرج منها ماءها ومرعاها) وذلك لأن هـــذا الاستعداد لا يحصل للأرض إلا بعد وجود السماء فإن الأرض كالأم والسماء كالأب ، ومالم يحصلا لم تتولد أولا المعادن والنباتات والحيوانات (وثالثها) أن يكون قوله (والأرض بعد ذلك) أى مع ذلك كقوله (عتل بعد ذلك زنيم) أى مع ذلك ، وقولك للرجل أنت كذا وكذا ثم أنت بعدها كذا لا تريد به الترتيب ، وقال تعالى (فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة) إلى قوله (ثم كان من الذين آمنوا) والمعنى وكان مع هذا من أهل الإيمان بالله ، فهذا تقرير مانقل عن ابن عباس ومجاهد والسدى وابن جريج أنهم قالوا فى قوله (والأرض بعد ذلك دحاها) أى مع ذلك دحاها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لما ثبت أن الله تعالى خلق الأرض أولا ثم خلق السماء ثانياً ، ثم دحى الأرض بعد ذلك ثالثاً ، ذكروا فى تقدير تلك الأزمنة وجوهاً . روى عن عبدالله بن عمر «خلق الله البيت قبل الأرض بألفى سنة ، ومنه دحيت الأرض» واعلم أن الرجوع فى أمثال هذه الأشياء إلى كتب الحديث أولى .

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله تعالى ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ماؤها عيونها المتفجرة بالماء ومرعاها رعيها ، وهو فى الأصل موضع الرعى ، ونصب الأرض والجبال بإضمار دحا وأرسى على شريطة التفسير ، وقرأهما الحسن مرفوعين على الابتداء ، فإن قيل هلا أدخل حرف العطف على أخرج قلنا لوجهين ؟ (الأول) أن يكون معنى دحاها بسطها ومهدها للسكنى ، ثم فسر التمهيد بما لابد منه فى تأتى سكناها من تسوية أمر المشارب والمآكل وإمكان القرار عليها بإخراج الماء والمرعى وإرساء الجبال وإثباتها أوتاداً لها حتى تستقر ويستقر عليها (والثانى) أن يكون (أخرج) حالا ، والتقدير والأرض بعد ذلك دحاها حال ما أخرج منها ماءها ومرعاها .

وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ أراد بمرعاها ما يأكل الناس والأنعام ، ونظيره قوله فى النحل (أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون) وقال فى سورة أخرى (أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً) إلى قوله (متاعاً لكم ولأنعامكم) فكذا فى هذه الآية واستعير الرعى للانسان كما استعير الرتع فى قوله (نرتع ونلعب) وقرى نرتع من الرعي ، ثم قال ابن قتيبة قال تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي) فانظر كيف دل بقوله (ماءها ومرعاها) على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب ، والشجر ، والحب والثمر والعصف ، والحطب ، واللباس والدواء حتى النار والملح ، أما النار فلا شك أنها من العيدان قال تعالى (أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) وأما الملح فلاشك أنه متولد من الماء ، وأنت إذا تأملت علمت أن جميع ما يتنزه به الناس فى الدنيا ويتلذذون به ، فأصله الماء والنبات ، ولهذا السبب تردد فى وصف الجنة ذكرهما ، فقال (جنات تجرى من تحتها الأنهار) ثم الذى يدل على أنه تعالى أراد بالمرعى كل ما يأكله الناس والأنعام قوله فى آخر هذه الآية (متاعاً لكم ولأنعامكم) .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله تعالى ﴿ والجبال أرساها ﴾ والكلام فى شرح منافع الجبال قد تقدم .

ثم إنه تعالى لما بين كيفية خلقة الأرض وكمية منافعها قال ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ والمعنى أنا إنما خلقنا هذه الأشياء متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم ، واحتج به من قال إن أفعال الله وأحكامه معللة بالأغراض والمصالح ، والكلام فيه قد مر غير مرة ، واعلم أنا بينا أنه تعالى إنما ذكر كيفية خلقة السماء والأرض ليستدل بها على كونه قادراً على الحشر والنشر ، فلما قرر ذلك وبين إمكان الحشر عقلا أخبر بعد ذلك عن وقوعه .

قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الطامة عند العرب الداهية التى لا تستطاع وفى اشتقاقها وجوه ، قال المبرد أخذت فيما أحسب من قولهم : طم الفرس طميما ، إذا استفرغ جهده فى الجرى ، وطم الماء إذا ملأ النهر كله ، وقال الليث الطم طم البئر بالتراب ، وهو الكبس ، ويقال طم السيل الركية إذا دفنها حتى يسويها ، ويقال للشيء الذى يكبر حتى يعلو قد طم ، والطامة الحادثة التى تطم على ما سواها ومن ثم قيل : فوق كل طامة طامة ، قال القفال : أصل الطم الدفن والعلو ، وكل ما غلب شيئاً وقهره وأخفاه فقد طمه ، ومنه الماء الطامى وهو الكثير الزائد ، والطاغى والعاتى والعادى سواء وهو الخارج عن أمر الله تعالى المتكبر ، فالطامة اسم لكل داهية عظيمة ينسى ما قبلها فى جنبها

يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد ظهر بما ذكرنا أن معنى الطامة الكبرى الداهية الكبرى ، ثم اختلفوا في أنها أي شيء هي ، فقال قوم إنها يوم القيامة لأنه يشاهد فيه من النار ، ومن الموقف الهائل ، ومن الآيات الباهرة الخارجة عن العادة ما ينسى معه كل هائل ، وقال الحسن إنها هي النفخة الثانية التي عندها تحشر الخلائق إلى موقف القيامة ، وقال آخرون إنه تعالى فسر الطامة الكبرى بقوله تعالى (يوم يتذكر الإنسان ما سعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى) فالطامة تكون اسماً لذلك الوقت ، فيحتمل أن يكون ذلك الوقت وقت قراءة الكتاب على ما قال تعالى (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً) ويحتمل أن تكون تلك الساعة هي الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، ثم إنه تعالى وصف ذلك اليوم بوصفين .

(الأول) قوله تعالى ﴿ يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴾ يعني إذا رأى أعماله مدونة في كتابه تذكرها ، وكان قد نسيها ، كقوله (أحصاه الله ونسوه) .

(الصفة الثانية) قوله تعالى ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (لمن يرى) أي أنها تظهر إظهاراً مكشوفاً لكل ناظر ذي بصر ثم فيه وجهان (أحدهما) أنه استعارة في كونه منكشفاً ظاهراً كقولهم : تبين الصبح لذي عينين .

وعلى هذا التأويل لا يجب أن يراه كل أحد (والثاني) أن يكون المراد أنها برزت ليراها كل من له عين وبصر ، وهذا يفيد أن كل الناس يرونها من المؤمنين والكفار ، إلا أنها مكان الكفار ومأواهم والمؤمنون يمرون عليها ، وهذا التأويل متأكد بقوله تعالى (وإن منكم إلا واردها) إلى قوله (ثم ننجي الذين اتقوا) فإن قيل إنه تعالى قال في سورة الشعراء (وأزلفت الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين) فخص الغاوين بتبريزها لهم . قلنا إنها برزت للغاوين ، والمؤمنون يرونها أيضاً في الممر ، ولا منافاة بين الأمرين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ أبو نهيك (وبرزت) وقرأ ابن مسعود : لمن رأى ، وقرأ عكرمة : لمن ترى ، والضمير للجحيم ، كقوله (إذا رأتهم من مكان بعيد) وقيل لمن ترى يا محمد من الكفار الذين يؤذونك .

واعلم أنه تعالى لما وصف حال القيامة في الجملة قسم المكلفين قسمين : الأشقياء والسعداء ، فذكر حال الأشقياء .

قوله تعالى : ﴿ فأما من طغى . وآثر الحيوة الدنيا ، فإن الجحيم هي المأوى ﴾ وفيه مسائل :

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ  فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ

(٤١)

﴿ المسألة الأولى ﴾ في جواب قوله (فإذا جاءت الطامة الكبرى) وجهان (الأول) قال الواحدى : إنه محذوف على تقدير إذا جاءت الطامة دخل أهل النار النار ، وأهل الجنة الجنة ، ودل على هذا المحذوف ، ماذكر فى بيان مأوى الفريقين ، ولهذا كان يقول مالك بن معول فى تفسير الطامة الكبرى ، قال إنها إذا سيق أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار (والثانى) أن جوابه قوله (فإن الجحيم هى المأوى) وكأنه جزاء مركب على شرطين نظيره إذا جاء الغد ، فمن جاءنى سائلا أعطيته ، كذا ههنا أى إذا جاءت الطامة الكبرى فمن جاء طاغياً فإن الجحيم مأواه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ منهم من قال : المراد بقوله (طغى ، وآثر الحياة الدنيا) النضر وأبوه الحارث فإن كان المراد أن هذه الآية نزلت عند صدور بعض المنكرات منه فجيد وإن كان المراد تخصيصها به ، فبعيد لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، لا سيما إذا عرف بضرورة العقل أن الموجب لذلك الحكم هو الوصف المذكور

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله طغى ، إشارة إلى فساد حال القوة النظرية ، لأن كل من عرف الله عرف حقارة نفسه ، وعرف استيلاء قدرة الله عليه ، فلا يكون له طغيان وتكبر ، وقوله (وآثر الحياة الدنيا) إشارة إلى فساد حال القوة العملية ، وإنما ذكر ذلك لماروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « حب الدنيا رأس كل خطيئة » ومتى كان الإنسان والعياذ بالله موصوفاً بهذين الأمرين ، كان بالغاً فى الفساد إلى أقصى الغايات ، وهو الكافر الذى يكون عقابه مخلداً ، وتخصيصه بهذه الحالة يدل على أن الفاسق الذى لا يكون كذلك ، لا تكون الجحيم مأوى له .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ تقدير الآية : فإن الجحيم هى المأوى له ، ثم حذفت الصلة لوضوح المعنى كقولك للرجل غض الطرف أى غض طرفك ، وعندى فيه وجه آخر ، وهو أن يكون التقدير : فإن الجحيم هى المأوى ، اللائق بمن كان موصوفاً بهذه الصفات والأخلاق .

ثم ذكر تعالى حال السعداء فقال تعالى ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى ﴾ واعلم أن هذين الوصفين مضادات للوصفين اللذين وصف الله أهل النار بهما فقوله (وأما من خاف مقام ربه) ضد قوله (فأما من طغى) وقوله (ونهى النفس عن الهوى) ضد قوله (وآثر الحياة الدنيا) واعلم أن الخوف من الله ، لا بد وأن يكون مسبوقاً بالعلم بالله على ما قال (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ولما كان الخوف من الله هو السبب المعين لدفع الهوى ، لا جرم قدم العلة على العلول ، وكما دخل فى ذينك الصفتين جميع القبائح دخل

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾

فى هذين الوصفين جميع الطاعات والحسنات ، وقيل الآيتان نزلتا فى أبى عزيز بن عمير ومصعب ابن عمير ، وقد قتل مصعب أخاه أبا عزيز يوم أحد ، ووقى رسول الله بنفسه حتى نفذت المشاقص فى جوفه .

واعلم أنه تعالى لما بين بالبرهان العقلى إمكان القيامة ، ثم أخبر عن وقوعها ، ثم ذكر أحوالها العامة ، ثم ذكر أحوال الأشقياء والسعداء فيها ، قال تعالى ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ ،

واعلم أن المشركين كانوا يسمعون أنباء القيامة ، ووصفها بالأوصاف الهائلة ، مثل أنها طامة وصاخة وقارعة ، فقالوا على سبيل الاستهزاء (أيان مرساها) فيحتمل أن يكون ذلك على سبيل الإيهام لأتباعهم أنه لا أصل لذلك ، ويحتمل أنهم كانوا يسألون الرسول عن وقت القيامة استعجالا ، كقوله (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) ثم فى قوله (مرساها) قولان (أحدهما) متى إرساؤها ، أى إقامتها أرادوا متى يقيمها الله ويوجدها ويكونها (والثانى) (أيان) منتهاها ومستقرها ، كما أن مرسى السفينة مستقرها حيث تنتهى إليه .

ثم إن الله تعالى أجاب عنه بقوله تعالى ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ وفيه وجهان (الأول) معناه فى أى شىء أنت عن تذكر وقتها لهم ، وتبين ذلك الزمان المعين لهم ، ونظيره قول القائل : إذا سأله رجل عن شىء لا يليق به ما أنت وهذا ، وأى شىء لك فى هذا ، وعن عائشة « لم يزل رسول الله ﷺ يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت هذه الآية » فهو على هذا تعجيب من كثرة ذكره لها ، كأنه قيل فى أى شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها ، والمعنى أنهم يسألونك عنها ، فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها .

ثم قال تعالى ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ أى منتهى علمها لم يؤته أحداً من خلقه (الوجه الثانى) قال بعضهم (فيم) إنكار لسؤالهم ، أى فيم هذا السؤال ، ثم قيل (أنت من ذكراها) أى أرسلك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل ذكراً من أنواع علاماتها ، وواحداً من أقسام أشراطها ، فكفاهم بذلك دليلا على دنوها ووجوب الاستعداد لها ، ولا فائدة فى سؤالهم عنها .

قوله تعالى : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ معنى الآية أنك إنما بعثت للإنذار وهذا المعنى لا يتوقف على علمك

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

بوقت قيام القيامة ، بل لو أنصفنا لقلنا بأن الإنذار والتخويف إنما يتمان إذا لم يكن العلم بوقت قيام القيامة حاصلا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه عليه الصلاة والسلام منذر للكل إلا أنه خص بمن يخشى ، لأنه الذى ينتفع بذلك الإنذار .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرىء منذر بالتنوين وهو الأصل ، قال الزجاج مفعل وفاعل إذا كان كل واحد منهما لما يستقبل أو للحال ينون ، لأنه يكون بدلا من الفعل ، والفعل لايكون إلا نكرة ويجوز حذف التنوين لأجل التخفيف ، وكلاهما يصلح للحال والاستقبال ، فاذا أريد الماضى فلا يجوز إلا الإضافة كقوله هو منذر زيد أمس .

ثم قال تعالى ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ وتفسير هذه الآية قد مضى ذكره فى قوله (كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) والمعنى أن ما أنكروه سيرونه حتى كأنهم أبداً فيه وكأنهم لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار ثم مضت (فان قيل) قوله (أو ضحاها) معناه ضحى العشية وهذا غير معقول لأنه ليس للعشية ضحى (قلنا) الجواب عنه من وجوه (أحدها) قال عطاء عن ابن عباس الهاء والألف صلة للكلام يريد لم يلبثوا إلا عشية أو ضحى (وثانيها) قال الفراء والزجاج المراد بإضافة الضحى الى العشية إضافتها إلى يوم العشية كأنه قيل إلا عشية أو ضحى يومها ، والعرب تقول آتيك العشية أو غداتها على ماذكرنا (وثالثها) أن النحويين قالوا يكفى فى حسن الإضافة أدنى سبب ، فالضحى المتقدم على عشية يصح أن يقال إنه ضحى تلك العشية ، وزمان المحنة قد يعبر عنه بالعشية وزمان الراحة قد يعبر عنه بالضحى ، فالذين يحضرون فى موقف القيامة يعبرون عن زمان محنتهم بالعشية وعن زمان راحتهم بضحى تلك العشية فيقولون كأن عمرنا فى الدنيا ماكان إلا هاتين الساعتين ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سورة النازعات

مَكِّية بإجماع. وهي خمسٌ أو ستٌّ وأربعون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾: أَقْسَمَ سبحانه بهذه الأشياء التي ذَكَرها على أنَّ القيامة حقٌّ. و«النازعاتِ»: الملائكةُ التي تَنزِعُ أرواحَ الكفار؛ قاله عليٌّ ﷺ[1]، وكذا قال ابن مسعود وابن عباس ومسروقٌ ومجاهدٌ: هي الملائكةُ تَنزِعُ نفوسَ بني آدم[2]. قال ابن مسعود: يريدُ أنفُسَ الكُفار يَنزِعُها ملكُ الموتِ من أجسادهم، مِن تحت كلِّ شعرةٍ، ومن تحت الأظافير وأصولِ القدمين، نَزْعاً كالسَّفُّود يُنزَعُ من الصُّوف الرَّطب، ثم يُغرِقُها، أي: يُرْجِعُها في أجسادهم، ثم ينزِعُها، فهذا عملُه بالكفار[3]. وقاله ابن عباس[4].

وقال سعيد بن جبير: نُزِعتْ أرواحُهم، ثم غُرِّقتْ، ثم حُرِقت؛ ثم قُذِفَ بها في النار. وقيل: يرى الكافر نفسَه في وقت النَّزعِ كأنَّها تغرق.

---

(١) زاد المسير ٩/ ١٤، وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٠.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٧ والنكت والعيون ٦/ ١٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠.

(٣) ذكره بنحوه البغوي ٤/ ٤٤١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٠.

وقال السُّدِّيُّ: و«النازِعاتِ»: هي النفوسُ حين تَغرَق في الصدور.

مجاهد: هي الموتُ ينزعُ النفوس.

الحسن وقتادة: هي النجومُ تَنْزِع من أُفقٍ إلى أفق[1]، أي: تذهب، مِن قولهم: نَزَع إليه، أي: ذهب، أو من قولهم: نَزَعَت الخيل، أي: جرت. «غَرْقاً» أي: أنَّها تَغْرَقُ وتَغيبُ وتطلعُ من أفقٍ إلى أفقٍ آخرَ. وقاله أبو عُبيدةَ وابنُ كَيسان والأخفش[2].

وقيل: النازعات القِسِيُّ تنزعُ بالسِّهام؛ قاله عطاءٌ وعِكرمة[3]. و«غَرْقاً» بمعنى: إغراقاً، وإغراقُ النازع في القوس أنْ يبلغ غايةَ المدِّ، حتى ينتهيَ إلى النَّصْل. يقال: أغرقَ في القوس، أي: استَوْفى مدَّها، وذلك بأنْ تنتهي إلى العَقَب الذي عند النَّصلِ الملفوفِ عليه. والاستغراقُ: الاستيعاب. ويقال لقِشْرةِ البيضةِ الداخلةِ: «غِرقِئ»[4].

وقيل: هم الغُزاة الرُّماة[5].

قلت: هو والذي قَبلَه سواءٌ؛ لأنَّه إذا أقسمَ بالقِسِيِّ فالمرادُ النَّازِعون بها تعظيماً لها، وهو مثلُ قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾ والله أعلم. وأراد بالإغراق: المبالغةَ في النَّزع، وهو سائغٌ في جميع وجوهِ تأويلها.

وقيل: هي الوحشُ تنزِعُ إلى الكلأ[6] وتَنْفِرُ. حكاه يحيى بنُ سلام. ومعنى «غرقاً» أي: إبعاداً في النزع.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا﴾ قال ابن عباس: يعني الملائكةَ تَنْشِطُ نفسَ المؤمنِ

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٤/ ٥٨-٥٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠ ، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤١ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٥٩ عن عطاء.

(٤) وهي القشرة الرقيقة الملتزقة ببياض البيض. المعجم الوسيط (غرق).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٤١ .

(٦) في (د) و(م) و(ي): من الكلأ، وكذا وقع في النكت والعيون ٦/ ١٩٢ والكلام منه، وفي (ظ): بين الكلأ، والمثبت من البحر ٨/ ٤١٩ ، وروح المعاني ٣٠/ ٢٥ .

فتقبضُها، كما يُنشَط العِقالُ من يد البعير إذا حُلَّ عنه. وحكى هذا القولَ الفرَّاءُ ثم قال: والذي سمعتُ من العرب أنْ يقولوا: أنْشَطْتُ، وكأنَّما أُنشِطَ من عِقال. وربَطها: نَشَطها، والرابط: الناشِط، وإذا رَبَطْتَ الحبلَ في يد البعير فقد نشَطْتَه، فأنت ناشطٌ، وإذا حَلَلْته فقد أنْشَطْتَه، وأنت مُنشِط[١].

وعن ابن عباس أيضاً: هي أنفُسُ المؤمنين عند الموتِ تَنْشطُ للخروج، وذلك أنَّه ما مِن مؤمنٍ إلاَّ وتُعرَضُ عليه الجنةُ قبل أن يموت، فيرى فيها ما أعدَّ الله له من أزواجه وأهله من الحور العين، فهم يَدْعونه إليها، فنفْسُه إليهم نشِطَةٌ أن تخرج فتأتيهم[٢].

وعنه أيضاً قال: يعني أنفسَ الكفارِ والمنافقين تُنْشَطُ كما يُنشَط العقَبُ الذي يُعْقَبُ به السهم. والعقَبُ بالتحريك: العَصَبُ الذي تُعمل منه الأوتار، الواحدةُ عَقَبة؛ تقول منه: عَقَبَ السهمَ والقدحَ والقوسَ عَقْباً: إذا لوى شيئاً منه عليه[٣]. والنَّشْطُ: الجَذْبُ بسرعة، ومنه الأنشوطةُ: عقدةٌ يسَهُلُ انْحِلالُها إذا جُذِبتْ مثل عُقدة التكَّة. وقال أبو زيد: نَشَطْتُ الحبلَ أنشُطه نَشطاً: عَقَدتُه بأُنشوطةٍ. وأنشَطْتُه، أي: حَلَلْتُه، وأنشطْتُ الحبل[٤]، أي: مَدَدْتُه حتى يَنحلَّ. وقال الفرَّاء: أُنشِطَ العقالُ، أي: حُلَّ، ونُشِط أي: رُبِطَ الحبلُ في يديه[٥].

وقال الليث[٦]: أنشطْتُه بأُنشوطة وأُنشوطتين، أي: أوثقته، وأنشطتُ العِقال: أي: مددتُ أُنشوطَته فانحلَّتْ. قال: ويقال: نَشَطَ بمعنى أنشَط، لغتان بمعنى. وعليه

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٠، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٩-٦٠ .

(٢) ذكره البغوي ٤/ ٤٤١، والطبرسي في مجمع البيان ٣٠/ ٢١ .

(٣) الصحاح (عقب).

(٤) في الصحاح (نشط) والكلام منه: وانتشطت الحبل، وكلاهما صواب كما في كتاب العين ٦/ ٢٣٣ .

(٥) سلف قول الفراء قريباً.

(٦) بنحوه في العين ٦/ ٢٣٢ .

يصحُّ قولُ ابنِ عباس المذكورُ أوَّلاً.

وعنه أيضاً: الناشطاتُ: الملائكةُ؛ لنشاطها، تذهبُ وتَجيءُ بأمرِ الله حيثُما كان.

وعنه أيضاً وعن عليٍّ رضي الله عنهما: هي الملائكةُ تَنْشُطُ أرواحَ الكفار، ما بين الجِلْدِ والأظفارِ، حتى تُخْرِجَها من أجوافهم، نشطاً بالكَرْب والغم[(١)]، كما يُنشَط الصوفُ من سَفُّود الحديد. وهي من النَّشط بمعنى الجَذْبِ، يقال: نَشَطْتُ الدَّلْوَ، أنشِطُها بالكسر، وأنشُطها بالضم: أي: نزعتها. قال الأصمعيُّ: بئرٌ أنشاطٌ: أي: قريبةُ القَعْرِ، تخرجُ الدَّلوُ منها بجذبةٍ واحدة. وبئرٌ نشوطٌ، قال: وهي التي لا يخرجُ منها الدلوُ حتى تُنشَطَ كثيراً[(٢)].

وقال مجاهد: هو الموتُ يَنشِطُ نفسَ الإنسان.

السُّدِّيُّ: هي النفوسُ حين تُنشَطُ من القدمين[(٣)].

وقيل: النازعاتُ: أيْدي الغُزاةِ أو أنفسُهم، تنزع القِسِيَّ بإغراق السهام، والتي تَنشِطُ الأوهاق[(٤)].

عِكرمةُ وعطاءٌ: هي الأوهاقُ تَنشِط البهائم[(٥)].

وعن عطاء أيضاً وقتادةُ والحسنُ والأخفشُ: هي النجومُ تَنشِطُ من أُفقٍ إلى أُفق،

---

(١) ذكره عن علي ﷺ البغوي ٤/ ٤٤٢ ، وأخرجه عنه سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٠.

(٢) الصحاح (نشط).

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٠ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٣ .

(٤) في (م): وهي التي تنشط الأوهاق، والمثبت من النسخ الخطية، والكشاف ٤/ ٢١٢ والكلام منه. وقد سلف نحو هذا القول قريباً. والأوهاق جمع وَهَق، وهو الحبل في أحد طرفيه أنشوطة يُطرح في عنق الدابة والإنسان حتى يؤخذ. المعجم الوسيط (وهق).

(٥) في النسخ عدا (ظ): السهام، والمثبت من (ظ). وأخرج هذا القول عن عطاء الطبري ٢٤/ ٦١ دون قوله: تنشط البهائم. وكذا أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١١ .

أي: تذهبُ[١]. وكذا في «الصِّحَاح»: «وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا» يعني النجومَ [تَنْشِطُ] من بُرْجٍ إلى برج، كالثورِ الناشطِ من بلدٍ إلى بلدٍ. والهمومُ تَنشِطُ بصاحبها؛ قال هِمْيان ابنُ قُحافةَ:

أمْسَتْ همومي تَنْشِطُ المَنَاشِطَا ... الشامَ بي طَوراً وطَوْراً واسِطَا[٢]

أبو عبيدَة وعطاءٌ أيضاً: الناشطاتُ: هي الوحشُ حين تنشِطُ من بلد إلى بلد، كما أنَّ الهمومَ تنشِطُ الإنسانَ من بلد إلى بلد؛ وأنشد قول هِميان: أمْسَتْ هُمومي، البيت[٣].

وقيل: «والنازِعاتِ» للكافرين «والناشِطاتِ» للمؤمنين، فالملائكةُ يجذبون رُوح المؤمنِ برِفْقٍ، والنزعُ: جذبٌ بشدةٍ، والنَّشطُ: جذبٌ بِرفْقٍ. وقيل: هما جميعاً للكفار، والآيتان بعدهما للمؤمنين عند فراق الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ قال عليٌّ ﷺ: هي الملائكةُ تَسْبَحُ بأرواح المؤمنين[٤].

الكلبيُّ: هي الملائكةُ تقبضُ أرواحَ المؤمنين، كالذي يسبحُ في الماء، فأحياناً يَنْغَمِسُ، وأحياناً يرتفع، يَسلُّونها سَلًّا رفيقاً بسهولة، ثم يَدَعونها حتى تَسْتَريح[٥].

وقال مجاهد وأبو صالح: هي الملائكةُ ينزلون من السماء مُسْرِعين لأمر الله،

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٢، وزاد المسير ٩/ ١٦.

(٢) الصحاح (نشط)، وما سلف بين حاصرتين منه، والبيت في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٤، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٢، وتهذيب اللغة ١١/ ٣١٤، والنكت والعيون ٦/ ١٩٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠. وهميان ابن قحافة هو أحد بني عُوافة بن سعد بن زيد مناة بن تميم، ويقال: أحد بني عامر بن عبيد بن الحارث، راجز مُخْسِن إسلامي، وكان في الدولة الأموية. المؤتلف والمختلف للآمدي ص٣٠٤.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٩٣ عن أبي عبيدة، وهو بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٤، وذكره عن عطاء ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٠. وذكر الطبري ٢٤/ ٦١-٦٢ جميع هذه الأقوال ثم قال: فكلُّ ناشطٍ فداخِلٌ فيما أقسم به، إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بأن المعنيَّ بالقَسم من ذلك بعضٌ دون بعض.

(٤) أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٠.

(٥) زاد المسير ٩/ ١٦.

كما يقال للفرس الجواد: سابح، إذا أسرعَ في جَرْيِه[١]. وعن مجاهد أيضاً: الملائكةُ تَسْبحُ في نزولها وصُعودها[٢].

وعنه أيضاً: السابحات: الموتُ يَسْبحُ في أنفُسِ بني آدم[٣].

وقيل: هي الخيلُ الغُزاةُ؛ قال عنترة:

والخيلُ تعلَمُ حين تَسْـ ـبَحُ في حِياضِ الموتِ سَبْحا[٤]

وقال امرؤُ القيس:

مِسَحٌّ إذا ما السَّابحاتُ على الوَنَى أَثَرْنَ غُباراً بالكَدِيدِ المُرَكَّلِ[٥]

قتادةُ والحسن: هي النجومُ تَسْبَحُ في أفلاكها، وكذا الشمسُ والقمر؛ قال الله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠][٦].

عطاء: هي السُّفن تَسْبحُ في الماء[٧].

ابن عباس: السابحاتُ: أرواحُ المؤمنين تسبحُ شوقاً إلى لقاء الله ورحمته حين تخرج[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٢ ، وزاد المسير ٩/ ١٦ ، وأخرجه عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٦٢-٦٣ .

(٢) ذكر الطبري ٢٤/ ٦٣ هذا القول مع الذي قبله على أنهما قول واحد، ولم يفرق بينهما.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٩٣ ، وزاد المسير ٩/ ١٦ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٢ .

(٤) النكت والعيون ٩/ ١٩٣ ، ولم نقف على البيت في المطبوع من ديوان عنترة، وذكر القول دون البيت البغوي ٤/ ٤٤٢ .

(٥) ديوان امرئ القيس ص٢٠ . قال النحاس في شرح المعلقات ١/ ٣٧ : المِسَحُّ: الكثير الجَرْي. والسابحات: السريعات. والوَنى: الفتور. والكديد: المكان الغليظ. والمركَّل: الذي أثَّرت فيه بحوافرها. ومعنى البيت: أن الخيل السريعات إذا فترت وأثارت الغبار بأرجلها من التعب، جرى هذا الفرس جَرْياً سهلاً كما تَسِحُّ السحابُ المطرَ.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٩٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٢ . وأخرجه عن عطاء الطبري ٢٤/ ٦٣ ، وعن الحسن أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١١ .

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٩٣ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣ .

(٨) أخرجه جويبر في تفسيره، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٠ .

قوله تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ قال عليٌّ ﷺ: هي الملائكةُ تَسْبِقُ الشياطين بالوحي إلى الأنبياء عليهم السلام. وقاله مسروقٌ ومجاهد.

وعن مجاهدٍ أيضاً وأبي رَوْق: هي الملائكةُ سبقَتْ ابنَ آدمَ بالخير والعمل الصالح. وقيل: تسبقُ بني آدمَ إلى العمل الصالح فتكتُبه.

وعن مجاهد أيضاً: الموتُ يسبقُ الإنسان.

مقاتل: هي الملائكة تسبقُ بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

ابن مسعود: هي أنفُسُ المؤمنين تسبقُ إلى الملائكة الذين يَقْبضونها وقد عايَنَتِ السرور، شوقاً إلى لقاء الله تعالى ورحمته. ونحوه عن الربيع، قال: هي النفوسُ تسبقُ بالخروج عند الموت.

وقال قتادةُ والحسن ومعمر: هي النجومُ يسبقُ بعضُها بعضاً في السير.

عطاء: هي الخيلُ التي تسبقُ إلى الجهاد[١].

وقيل: يحتملُ أن تكون السابقاتُ ما يسبقُ من الأرواح قَبْلَ الأجسادِ إلى جنةٍ أو نار؛ قاله الماوَرْديّ[٢].

وقال الجُرجانيُّ: ذَكَر «فالسابقات» بالفاء لأنَّها مشتقَّةٌ من التي قبلها، أي: واللّائي يَسبَحْنَ فيَسْبِقْنَ، تقول: قام فذهب؛ فهذا يوجبُ أن يكون القيامُ سبباً للذهاب، ولو قلتَ: قام وذهب، لم يكن القيامُ سبباً للذهاب.

قوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ قال القُشَيريُّ: أجمعوا على أنَّ المرادَ الملائكة.

وقال الماوَرْديُّ[٣]: فيه قولان: أحدُهما: الملائكة؛ قاله الجمهور. والقول

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٦٤ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٢ ، وزاد المسير ٩/ ١٧ .

(٢) في النكت والعيون ٦/ ١٩٤ .

(٣) المصدر السابق.

الثاني: هي الكواكبُ السبعةُ؛ حكاه خالد مَعْدان عن مُعاذ بن جبل.

وفي تدبيرها الأمرَ وجهان: أحدُهما: تدبيرُ طُلوعِها وأُفولها. الثاني تدبيرُ ما قضاه الله تعالى فيها من تقلُّب الأحوال. وحكى هذا القولَ أيضاً القُشيريُّ في تفسيره، وأنَّ الله تعالى علَّق كثيراً من تدبير أمرِ العالَم بحركاتِ النجوم، فأُضيفَ التدبيرُ إليها وإن كان من الله، كما يسمَّى الشيءُ باسمِ ما يُجاوِرُه.

وعلى أنَّ المرادَ بالمدبِّرات الملائكةُ، فتدبيرُها: نزولُها بالحلالِ والحرام وتَفصيلِه؛ قاله ابن عباس وقتادةُ وغيرهما[1]. وهو إلى الله جل ثناؤه، ولكنْ لمَّا نزلت الملائكةُ به سمِّيتْ بذلك، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣] وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة:٩٧] يعني جبريل، نزَّله على قلبِ محمدٍ ﷺ، واللهُ عزَّ وجلَّ هو الذي أنزله.

وروى عطاءٌ عن ابن عباس: «فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا»: الملائكةُ وُكِّلتْ بتدبيرِ أحوالِ الأرضِ في الرياح والأمطار وغيرِ ذلك. قال عبد الرحمن بنُ سابطٍ: تدبيرُ أمرِ الدنيا إلى أربعةٍ؛ جبريلُ وميكائيلُ وملكُ الموتِ ـ واسمُه عزرائيل ـ وإسرافيلُ. فأمَّا جبريلُ فموكَّلٌ بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكَّلٌ بالقَطْرِ والنبات، وأمَّا ملكُ الموتِ فموكَّلٌ بقبضِ الأنفسِ في البرِّ والبحر، وأما إسرافيلُ فهو ينزل بالأمر عليهم[2]. وليس من الملائكة أقربُ من إسرافيل[3]، وبينه وبين العرشِ مسيرةُ خمسِ مئةِ عامٍ.

وقيل: أي: وُكِّلوا بأمورٍ عرَّفهم الله بها[4].

ومن أوَّلِ السورةِ إلى هنا قَسَمٌ أقسمَ الله به، ولله أن يُقْسِمَ بما شاء مِن خَلْقِه،

---

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٣٠ دون نسبة.

(٢) سلف ١٧/ ٨.

(٣) قطعة من خبر أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٣٩٥) عن وهيب بن عروة قال: بلغني أن أقرب الخلق من الله عز وجل إسرافيل...

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤١٩، والبغوي ٤/ ٤٤٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وليس لنا ذلك إلَّا به عزَّ وجلّ. وجوابُ القسمِ مُضمَرٌ، كأنه قال: والنازعاتِ وكذا وكذا لَتُبعثُنَّ ولتحاسَبُنَ. أُضْمِرَ لمعرفةِ السامِعينَ بالمعنى؛ قاله الفراء[١]. ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ ألَسْتَ تَرى أنه كالجواب لقولهم: «أئِذا كنَّا عِظاماً نَخِرةً» نُبْعَث؟ فاكتفى بقوله: «أئِذا كنَّا عِظاماً نَخِرةً».

وقال قومٌ: وقع القسمُ على قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ وهذا اختيارُ التِّرمذيِّ ابن عليٍّ. أي: فيما قصصتُ مِن ذِكْرِ يومِ القيامةِ، وذِكْرِ موسى وفرعونَ «لعِبرةً لِمن يخشى».

ولكنَّ وَقْعَ القسمِ على ما في السورة مذكوراً ظاهراً بارزاً أحرى وأقْمنُ مِن أنْ يُؤتَى بشيءٍ ليس بمذكورٍ فيها، قال ابن الأنباريِّ: وهذا قبيح؛ لأنَّ الكلامَ قد طال فيما بينهما.

وقيل: جوابُ القسمِ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ لأنَّ المعنى: قد أتاك[٢].

وقيل: الجوابُ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ على تقدير: لَيوم ترجُف، فحذف اللام[٣].

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، وتقديرُه: يومَ ترجُف الراجفةُ وتَتْبَعها الرادفةُ والنازعاتِ غرقاً[٤].

وقال السِّجِسْتانيُّ: يجوزُ أن يكون هذا من التقديم والتأخير، كأنه قال: فإذا هم بالساهرة والنازعاتِ. ابن الأنباريِّ: وهذا خطأٌ؛ لأنَّ الفاء لا يُفتحُ بها الكلام، والأوّلُ الوَجْهُ.

وقيل: إنَّما وقع القسمُ على أنَّ قلوبَ أهل النار تجفُّ، وأبصارهم تخشعُ،

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٠-٢٣١ .

(٢) ذكره أبو حيان في البحر ٨/ ٤٢٠ وقال: ليس بشيء.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٢ .

فانتصابُ «يومَ ترجُف الراجفة» على هذا المعنى، ولكن لم يقع عليه. قال الزجَّاج[١]: أي: قلوبٌ واجفةٌ يومَ تَرْجُف. وقيل: انتَصَبَ بإضمارِ: اذْكُر.

و«ترجُف» أي: تَضْطَرِبُ. و«الراجفة» أي: المُضطَرِبة، كذا قال عبد الرحمن بن زيد؛ قال: هي الأرضُ، والرادِفةُ: الساعة[٢].

مجاهد: الراجفةُ: الزلزلة، ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ الصيْحة.

وعنه أيضاً وابن عباس والحسن وقتادة: هما الصيحتان. أي: النفختان. أمَّا الأُولى فتُمِيتُ كلَّ شيءٍ بإذن الله تعالى، وأمَّا الثانيةُ فتُحيي كلَّ شيءٍ بإذن الله تعالى[٣]. وجاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ قال: «بينهما أربعون سنة»[٤].

وقال مجاهد أيضاً: الرادفةُ حين تنشقُّ السماء، وتُحملُ الأرضُ والجبال فتدَكُّ دكَّةً واحدة، وذلك بعد الزلزلة[٥].

وقيل: الراجفةُ تحرِّكُ الأرض، والرادفةُ: زلزلةٌ أخرى تُفني الأرضين. فالله أعلم. وقد مضى في آخرِ «النمل» ما فيه كفايةٌ في النفخ في الصور[٦].

وأصلُ الرجفةِ الحركة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ [المزمل: ١٤] وليست الرجفةُ هاهنا من الحركة فقط، بل من قولهم: رجَف الرعدُ يرجُف رَجْفاً ورَجيفاً، أي: أَظْهَر الصوتَ والحركة، ومنه سمِّيت الأراجيفُ؛ لاضطراب الأصوات بها، وإفاضةِ الناس فيها؛ قال:

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٧٨ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٨ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥-٦٦ عن ابن عباس والحسن وقتادة.

(٤) سلف ١٦/ ٢١٨ .

(٥) أخرجه الطبري بنحوه ٢٤/ ٦٧ .

(٦) ١٦ : ٢١٨ فما بعد .

أبِالأَراجِيفِ يا ابنَ اللؤمِ تُوعِدني وفي الأَرَاجيفِ خِلتُ اللؤمَ والخوَرَا[١]

وعن أُبيّ بن كعبٍ: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ربعُ الليلِ قام ثم قال: «يا أيها الناسُ، اذكُروا الله، جاءتِ الرّاجِفةُ تَتبعُها الرّادِفةُ، جاء الموتُ بما فيه»[٢].

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي: خائفةٌ وَجِلةٌ؛ قاله ابنُ عباس، وعليه عامَّة المفسِّرين[٣]. وقال السُّدِّيُّ: زائلةٌ عن أماكنها، نظيرهُ: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: ١٨][٤]. وقال المؤرِّج: قلقة مُستوفِزة، مُرْتكِضَةٌ غيرُ ساكنة[٥]. وقال المبرد: مضطربةٌ. والمعنى متقارب.

والمرادُ قلوبُ الكفارِ؛ يقال: وجَفَ القلبُ يجِفُ وجِيفاً: إذا خَفَقَ، كما يقال: وجَب يَجِب وَجيباً، ومنه: وَجيفُ الفرسِ والناقةِ في العَدْو، والإيجافُ: حَملُ الدابَّةِ على السَّيرِ السريع، قال:

بُدِّلْنَ بعد جِرَّةٍ صَرِيفَا وبعد طولِ النَّفَسِ الوجِيفَا[٦]

و«قلوبٌ» رفع بالابتداء، و«واجِفةٌ» صفتُها، و﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ خبرُها، مثل قوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ [البقرة: ٢٢١] ومعنى «خاشِعة»: مُنْكَسِرة ذليلة من هَوْلِ ما ترى، نظيره: ﴿خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: ٤٣][٧]. والمعنى: أبصارُ

---

(١) ١٧/ ٢٣٤.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١، وأخرجه بنحوه أحمد (٢١٢٤١)، والترمذي (٢٤٥٧).

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٩.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٣.

(٥) تفسير الرازي ٣١/ ٣٤، وقوله: مرتكضة، أي: مضطربة، في القاموس (ركض): ارتكض: اضطرب.

(٦) ذكرهما بهذا اللفظ الطبري ١٧/ ٥١٩ ضمن خبر عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقائلهما لبيد، وهما في ديوانه ص٣٥١ برواية:

بدِّلن بعد النَّفَش الوجيفا وبعد طول الخبرة الصريفا

الجرة: ما يفيض به البعير فيأكله ثانية، واللقمة يتعلل بها البعير إلى وقت علفه. والصريف: صرير ناب البعير، القاموس (جرر) و(صرف).

(٧) الكشاف ٤/ ٢٠٢

أصحابِها، فحذف المضاف.

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي: يقولُ هؤلاء المكذِّبون المنكِرون للبعث، إذا قيل لهم: إنكم تُبعثون، قالوا مُنكِرين متعجِّبين: أنردُّ بعد موتنا إلى أولِ الأمر، فنعودَ أحياءً كما كنَّا قبل الموت؟ وهو كقولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩] يقال: رجع فلانٌ في حافِرته، وعلى حافرته، أي: رجع مِن حيثُ جاء؛ قاله قتادة[١].

وأنشد ابن الأعرابيِّ:

أَحَافِرةً على صَلَعٍ وشَيبٍ ... مَعَاذَ اللهِ مِن سَفَهٍ وعارِ[٢]

يقول: أأَرْجِعُ إلى ما كنتُ عليه في شبابي من الغَزَل والصِّبا بعد أن شِبْتُ وصَلِعت! ويقال: رجع على حافرته، أي: الطَّريقِ الذي جاء منه. وقولُهم في المثل: النقدُ عند الحافرة. قال يعقوب: أي عند أوَّلِ كلمة. ويقال: التقى القومُ فاقتتلوا عند الحافرة، أي: عند أولِ ما التقَوْا[٣].

وقيل: الحافرةُ: العاجلة، أي: أئنَّا لمردودون إلى الدنيا فنَصِيرَ أحياءً كما كنَّا؟ قال الشاعر:

آلَيْتُ لا أنساكُمُ فاعلَمُوا ... حَتى يُردَّ الناسُ في الحافِرهْ[٤]

وقيل: الحافرة: الأرضُ التي تُحفَر فيها قبورُهم، فهي بمعنى المحفورة، كقوله

(١) بنحوه في تفسير الطبري ٢٤/ ٧١ .

(٢) أدب الكاتب ص٤١٥، وإصلاح المنطق ص٣٢٧ ، وأمالي القالي ١/ ٢٧ ، والصحاح (حفر). قال البَطَلْيَوْسي في الاقتضاب ص٣٩٤ : هذا البيت لا أعلم قائله. اهـ. ونصب حافرة على أنه اسم في معنى المصدر أقيم مقامه، والتقدير: أرُجوعاً إلى أول أمري، يريد: أأرجع رجوعاً، فحذف الفعل واكتفى بمصدره. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٤٦٧ .

(٣) الصحاح (حفر) وقول يعقوب (وهو ابن السكيت) في إصلاح المنطق ص٣٢٧ . وقولهم: النقد عند الحافرة، هو لما يباع نقداً، وأصله من بيع الفرس؛ كان يقال: لا يزول حافره حتى ينقد ثمنه. مفردات الراغب (حفر)، وعمدة الحفاظ ١/ ٦٩٥ .

(٤) ذكره أبو حيان في البحر ٨/ ٤٢٠ ، والسمين في الدر المصون ١٠/ ٦٧١ .

تعالى: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] و﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]. والمعنى: أئنا لمردودون في قبورنا أحياء. قاله مجاهدٌ والخليلُ والفرَّاء[١].

وقيل: سمِّيت الأرضُ الحافرة؛ لأنَّها مستَقَرُّ الحوافر، كما سمِّيت القدمُ أرضاً؛ لأنها على الأرض. والمعنى: أئنَّا لراجِعون بعد الموت إلى الأرض فنمشي على أقدامنا.

وقال ابن زيد: الحافرة: النار، وقرأ: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾[٢]. وقال مقاتلٌ وزيد بن أسلم: هي اسمٌ من أسماء النار.

وقال ابن عباس: الحافِرة في كلام العرب: الدنيا[٣].

وقرأ أبو حَيوة: «الحَفِرة» بغير ألف[٤]، مقصورٌ من الحافر، وقيل: الحفِرة: الأرضُ المُنتِنةُ بأجسادِ مَوْتاها، من قولهم: حَفِرتْ أسنانُه، إذا ركبها الوسخُ من ظاهرها وباطنها[٥]. يقال: في أسنانه حَفْر، وقد حَفَرت تحفِر حَفْراً، مثل كَسَر يَكسِر كسْراً، إذا فَسَدتْ أصولُها. وبنو أسدٍ يقولون: في أسنانه حَفَرٌ ـ بالتحريك ـ وقد حَفِرت، مثال: تعِبَ تَعَباً، وهي أردأُ اللغتين؛ قاله في «الصحاح»[٦].

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ أي: بالية متفتِّتةً. يقال: نَخِرَ العظمُ بالكسر، أي: بَلِيَ وتَفتَّتَ؛ يقال: عظام نخِرة. وكذا قرأ الجمهورُ من أهلِ المدينة ومكةَ والشام والبصرة[٧]، واختاره أبو عُبيد؛ لأنَّ الآثار التي تُذكَر فيها العظام، نظَرْنا فيها

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٢ ، وذكره عن مجاهد والخليل ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢ ، وأخرجه بنحوه عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٧١ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧١-٧٢ .

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج الطبري ٢٤/ ٧٠ عن ابن عباس ﷺ، قال: الحافرة: الحياة.

(٤) القراءات الشاذة ص١٦٨ ، والمحتسب ٢/ ٣٥٠ .

(٥) المحتسب ٢/ ٣٥٠ .

(٦) مادة (حفر).

(٧) قرأ بها من السبعة ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص. السبعة ص٦٧٠ ، والتيسير ص٢١٩ .

فرأينا نخِرة لا ناخرة.

وقرأ أبو عمرو وابنُه عبد الله وابن عباس وابن مسعود وابن الزبير وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر: «ناخِرةً» بألفٍ[١]، واختاره الفرَّاء والطبريُّ وأبو معاذٍ النحويُّ؛ لِوفاق رؤوسِ الآي[٢]. وفي «الصحاح»: والناخِرُ من العظام: الذي تدخلُ الريحُ فيه ثم تخرج منه ولها نَخِير. ويقال: ما بها ناخِرٌ، أي: ما بها أحدٌ. حكاه يعقوبُ عن الباهليّ[٣]. وقال أبو عمرو بن العلاء: الناخِرةُ: التي لم تنخر بعد، أي: لم تَبْلَ، ولابدَّ أن تنخر[٤]. وقيل الناخرة: المُجوَّفة[٥].

وقيل: هما لغتان بمعنى، كذلك تقول العرب: نَخِرَ الشيءُ فهو نُخِرٌ وناخِر، كقولهم: طَمِعَ فهو طَمِعٌ وطامِع، وحَذِرٌ وحاذِر، وبَخِلٌ وباخِل، وفَرِه وفارِه[٦]؛ قال الشاعر:

يظَلُّ بها الشيخُ الذي كان بادِناً يَدِبُّ على عُوْجٍ له نَخِراتِ[٧]

عُوج: يعني قوائم.

وفي بعض التفسير: ناخِرة بالألف: بالِية، ونَخِرة: تَنخُرُ فيها الريح[٨]، أي تمرُّ

(١) السبعة ص٦٧٠، والتيسير ص٢١٩، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢، دون ذكر أبي عمرو وابنه، والمشهور عن أبي عمرو: «نخرة»، كما في التعليق السابق.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣١، وتفسير الطبري ٢٤/ ٧٢.

(٣) الصحاح (نخر).

(٤) بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢.

(٥) ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٣٢ عن بعض المفسرين أنه قال: النخرة: البالية، والناخرة: العظم المجوف الذي تمر فيه الريح فينخر.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣١-٢٣٢، والكشاف ٤/ ٢١٣. قال الزمخشري: وفَعِلٌ أبلغ من فاعِل.

(٧) البيت للحطيئة، وهو في شرح ديوانه برواية:

فظل به الشيخ الذي كان فانياً يَدِفُّ على عوج له نخرات

قال الشارح: يَدِفُّ: كأنه يسرع ويمشي وفيه إبطاء لكبره، والعوج: أراد قوائمه قد اعوَجَّتْ من الكبر.

(٨) النكت والعيون ٦/ ١٩٦.

فيها، على عَكسِ الأولِ؛ قال:

مِن بعدِ ما صِرْتَ عِظاماً ناخِرة[(١)]

وقال بعضُهم: الناخِرةُ: التي أُكِلتْ أطرافُها وبقيتْ أوساطُها. والنَّخِرةُ: التي فَسَدتْ كلُّها.

قال مجاهد: نَخِرة، أي: مَرْفوتة[(٢)]، كما قال تعالى: ﴿عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ [الإسراء:٩٨] ونُخْرةُ الريحِ بالضم: شدَّةُ هُبوبِها. والنُّخْرةُ أيضاً والنُّخَرةُ مثال الهُمَزةِ: مقدَّمُ أنفِ الفرسِ والحمارِ والخنزير؛ يقال: هشَّم نُخْرَته، أي: أنفه[(٣)].

﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي: رَجعةٌ خائبة، كاذبة باطلة، أي: ليست كائنةً؛ قاله الحسن وغيره[(٤)]. الربيع بن أنس: خاسِرةٌ على مَن كذَّب بها. وقيل: أي: هي كَرَّةُ خُسْران. والمعنى: أهلُها خاسرون؛ كما يقال: تجارةٌ رابِحةٌ، أي: يَرْبَحُ صاحبها. ولا شيءَ أخسَرُ من كَرَّةٍ تقتضي المَصِيرَ إلى النار.

وقال قتادةُ ومحمد بن كعب: أي: لئن رَجَعْنا أحياءً بعد الموتِ لنحشَرَنَّ بالنار[(٥)]. وإنَّما قالوا هذا لأنَّهم أُوْعِدوا بالنار.

والكَرُّ: الرجوع؛ يقال: كَرَّهُ، وكَرَّ بنفسه، يتعدَّى ولا يتعدَّى. والكَرَّةُ المَرَّة، والجمعُ: الكَرَّات[(٦)].

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ذَكَر جلَّ ثناؤه سهولةَ البعثِ عليه فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ

---

(١) سيأتي قريباً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٣.

(٣) الصحاح (نخر).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٢، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٧٣ عن قتادة بلفظ: رجعة خاسرة.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٩٦، وفيه لنخسرن، بدل: لنحشرن.

(٦) الصحاح (كرر).

وَٰحِدَةٌ﴾. وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: نفخةٌ واحدة[1] ﴿فَإِذَا هُم﴾ أي: الخلائقُ أجمعون ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ أي: على وَجْهِ الأرض، بَعْدَ ما كانوا في بطنها. قال الفرَّاء: سُمِّيتْ بهذا الاسم؛ لأنَّ فيها نَومَ الحيوانِ وسَهَرَهم[2]. والعربُ تُسمِّي الفَلاةَ ووَجْهَ الأرضِ: ساهِرة، بمعنى: ذات سَهَرٍ؛ لأنَّه يُسهَرُ فيها خوفاً منها[3]، فَوَصَفَها بصِفَةِ ما فيها. واستدلَّ ابنُ عباسٍ والمفسِّرون بقولِ أميةَ بنِ أبي الصَّلْتِ:

وفيها لَحْمُ ساهِرةٍ وبحرٍ ... وما فاهُوا به لَهُمُ مُقيمُ[4]

وقال آخَرُ يومَ ذي قارٍ لفرسه:

أَقْدِمْ مَحَاجِ إنَّها الأساوِرَهْ ... ولا يَهُولَنَّكَ رِجلٌ نادِرَهْ

فإنَّما قَصرُك تُربُ الساهِرهْ ... ثم تعودُ بعدَها في الحافِرهْ

مِن بعدِ ما صِرتَ عِظاماً ناخِرَهْ[5]

وفي «الصحاح»: ويقال: السَّاهور: ظِلُّ الساهِرة، وهي وجهُ الأرض. ومنه قولُه تعالى: «فإذا هُمْ بالساهِرةِ»، قال أبو كبير الهذليُّ:

يَرتَدْنَ ساهِرةً كأنَّ جَميمَها ... وعَميمَها أسدافُ ليلٍ مُظلِمِ[6]

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٤ عن ابن زيد، وذكر الماوردي ٦/ ١٩٦ عن الربيع بن أنس، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٣ .

(٣) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢ ، وتفسير الرازي ٣١/ ٣٨ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٣ ومجاز القرآن ٢/ ٢٨٥ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٧٤-٧٥ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٦ والبيت في ديوان أمية ص١٢١ . قوله: فاهوا، قال أبو عبيدة: أي تكلموا.

(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ٧٥ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٦ . وذكرها القالي في أماليه ١/ ٢٦ ، وابن دريد في الجمهرة ٢/ ٢١٥ ، على أنها قيلت في القادسية، مع اختلاف يسير فيها. ونسبت في سمط اللآلي ١/ ١٢٣-١٢٤ للحارث بن سمي بن رؤاس الهمداني. وقال البكري: وكان قد ضُربت رجله فَنَدرتْ، أي: بانت، وقوله: فإنما قَصْرُك، أي: قُصَارُك.

(٦) الصحاح (سهر)، والبيت في شرح ديوان الهذليين ٣/ ١٠٩٠ . قال شارح الديوان: الجميم: النبت الذي قد نبت وارتفع قليلاً ولم يتم كل التمام، والعميم: المكتهل التام من النَّبت. ا هـ. والأسداف جمع سَدَفٍ بالتحريك، وهو ظلمة الليل. اللسان (سدف).

ويقال: الساهور: كالغِلافِ للقمر يَدْخُلُ فيه إذا كُسِف، وأنشدوا قولَ أميةَ بنِ أبي الصَّلْت:

قَـمـرٌ وسـاهـورٌ يُـسَـلُّ ويُـغْـمَـدُ[1]

وأنشدوا لآخَر في وَصْفِ امرأةٍ:

كـأنَّـهـا عِـرْقُ سـامٍ عـنـد ضـارِبِـهِ أو شُقَّةٌ خرجَتْ مِن جَوْفِ ساهورِ[2]

يريد شُقَّةَ القمر.

وقيل: الساهرة: هي الأرضُ البيضاء.

ورَوى الضَّحاك عن ابن عباس قال: أرضٌ من فِضَّةٍ لم يُعْصَ الله جلَّ ثناؤه عليها قطُّ، خلَقَها حينئذٍ.

وقيل: أرضٌ جدَّدها الله يوم القيامة. وقيل: الساهرةُ اسمُ الأرضِ السابعةِ يأتي بها الله تعالى فيحاسِبُ عليها الخلائق، وذلك حين تبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض.

وقال الثوريُّ: الساهرة: أرضُ الشام[3]. وهب بنُ منبه: جبلُ بيتِ المَقْدِس. عثمان بنُ أبي العاتِكةِ: إنه اسمُ مكانٍ من الأرض بعَيْنه بالشام، وهو الصُّقْعُ الذي بين جبل أريحاء وجبلِ حسَّان يَمدُّه الله كيف يشاء[4].

قتادة: هي جهنم[5]، أي: فإذا هؤلاء الكفارُ في جهنَّم. وإنَّما قيل لها: ساهرة؛

---

(١) ديوان أمية ص٤٩، والصحاح (سهر)، والخزانة ١/ ٢٤٩، وصدره: لا نقص فيه غير أن خبيئه.

(٢) تهذيب اللغة ٦/ ١٢٠، وأساس البلاغة (سهر)، واللسان (سهر). وصدره في تهذيب اللغة وأساس البلاغة: كأنها بُهْتةٌ ترعى بأقرية. وفي اللسان: أو فلقة، بدل: أو شقة. والسام: عروق الذهب والفضة، واحدتها سامَة. والبهتة: البقرة. اللسان (سهر) و(سوم).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٤، ووقع في إعراب القرآن: أرض بالشام.

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٩٦-١٩٧، وأخرج القولين الطبري ٢٤/ ٧٧-٧٨. وحسان: قرية بين دير العاقول وواسط. معجم البلدان ٢/ ٢٥٨.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٧٨.

لأنَّهم لا ينامون عليها حينئذٍ.

وقيل: الساهرة: بمعنى الصحراء على شفير جهنم، أي: يُوقَفون بأرض القيامة، فيدومُ السَّهرُ حينئذ.

ويقال: السَّاهرة: الأرضُ البيضاءُ المستويةُ، سمِّيتْ بذلك لأنَّ السَّراب يجري فيها، من قولهم: عينٌ ساهرةٌ: جاريةُ الماء، وفي ضدِّها: نائمة؛ قال الأشعثُ بنُ قيس:

وساهرة يُضْحي السَّرابُ مُجَلِّلاً لأقطارِها قد جئْتُها مُتلَثِّماً

أو لأنَّ سالِكَها لا ينامُ خوفَ الهَلَكة[1].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي: قد جاءك وبَلَغكَ حديثُ موسى، وهذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ. أي: إنَّ فرعون كان أقوى من كفَّار عَصْرِك، ثم أخذناه، وكذلك هؤلاء. وقيل: «هل» بمعنى «ما»، أي: ما أتاك، ولكنْ أُخْبِرْتَ به، فإنَّ فيه عِبرةً لمن يخشَى. وقد مضى من خَبَرِ موسى وفرعونَ في غيرِ موضعٍ ما فيه كفاية.

وفي «طُوى» ثلاثُ قراءاتٍ: قرأ ابنُ مُحيصِنٍ وابنُ عامرٍ والكوفيون: «طُوًى» منوَّناً، واختاره أبو عبيد لخفَّةِ الاسم. الباقون بغير تنوين[2]؛ لأنَّه معدولٌ، مثل: عُمر

---

(١) الكلام مع البيت في الكشاف ٤/ ٢١٣.

(٢) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو من السبعة. السبعة ص٦٧١، والتيسر ص١٥٠.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: وأُرْشِدَكَ إلى طاعةِ ربِّك ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ أي: تخافه وتتَّقيه.

وقرأ نافع وابن كثير: «تَزَّكَّى» بتشديدِ الزاي، على إدغامِ التاء في الزاي، لأنَّ أصلها: تتزكَّى. الباقون: «تَزَكَّى» بتخفيفِ الزاي، على معنَى طَرْحِ التاء[١]. وقال أبو عمرو: «تَزَّكَّى» بالتشديد [تَتَصَدَّق بـ][٢] الصدقة، و«تَزَكَّى»: تكون زَكيًّا مؤمناً، وإنَّما دعا فرعونَ ليكون زكيًّا مؤمناً. قال: فلهذا اختَرْنا التخفيف.

وقال صخر بنُ جُوَيرية: لمَّا بعث الله موسى إلى فرعون قال له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ ولن يَفعَلَ. فقال: يا رب، وكيف أذهبُ إليه وقد علمتَ أنه لا يفعل؟ فأَوْحَى الله إليه: أن امضِ إلى ما أمرْتُكَ به، فإنَّ في السماء اثني عَشَرَ ألفَ مَلَكٍ يطلبون علمَ القَدر، فلم يَبْلُغوه ولا يُدْرِكوه[٣].

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: العلامةَ العُظمَى وهي المعجزة. وقيل: العصا. وقيل: اليد البيضاء تَبرُقُ كالشمس. وروى الضحَّاك عن ابن عباس: «الآية الكبرى» قال: العصا. الحسن: يده وعصاه[٤]. وقيل: فَلْق البحر. وقيل: الآية: إشارةٌ إلى جميع آياته ومعجزاته.

﴿فَكَذَّبَ﴾ أي: كذَّب نبيَّ الله موسى ﴿وَعَصَىٰ﴾ أي: عصى ربَّه عزَّ وجلَّ ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ أي: ولَّى مُدبِراً مُعرِضاً عن الإيمان، «يسعَى» أي: يعملُ بالفساد في الأرض. وقيل: يعملُ في نكاية موسى. وقيل: «أدبر يسعَى» هارباً من الحية. ﴿فَحَشَرَ﴾ أي: جَمعَ أصحابه ليمنعوه منها. وقيل: جَمعَ جنودَه للقتال والمُحاربة، والسَّحَرةَ للمعارَضَة. وقيل: حشر الناس للحضور. ﴿فَنَادَىٰ﴾ أي: قال لهم بصوتٍ عالٍ ﴿فَقَالَ

(١) السبعة ص٦٧١، والتيسير ص٢١٩.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من تفسير الطبري ٢٤/ ٨١، والكلام فيه بنحوه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٦. وصخر بن جويرية هو الإمام المحدث أبو نافع التميمي مولاهم، وقيل: مولى بني هلال، البصري، توفي سنة بضع وستين ومئة. السير ٧/ ٤١٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٨٢.

وقُثَم. قال الفرَّاء[١]: طُوَى: وادٍ بين المدينةِ ومصرَ. قال: وهو معدولٌ عن طاوٍ، كما عُدِلَ عُمَرُ عن عامر.

وقرأ الحسنُ وعِكرمةُ: «طِوًى» بكَسْرِ الطَّاء، ورُوي عن أبي عمرو. على معنى: المُقَدَّس مرةً بعد مرة؛ قاله الزجَّاج وأنْشَد:

أعَاذِل إنَّ اللومَ في غيرِ كُنْهِهِ عليَّ طِوًى مِن غَيِّكِ المتردِّدِ[٢]

أي: هو لومٌ مُكرَّرٌ عليَّ. وقيل: ضمُّ الطَّاءِ وكَسْرُها لغتان، وقد مضى في «طه» القولُ فيه[٣].

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: ناداه ربُّه، فحذف؛ لأنَّ النداء قولٌ، فكأنه: قال له ربُّه: «اذْهَبْ إلى فِرعونَ». ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: جاوَزَ القَدْرَ في العِصْيان.

ورُوي عن الحسن قال: كان فرعون عِلجًا من هَمْدان[٤]. وعن مجاهدٍ قال: كان من أهلِ إصْطَخْر[٥]. وعن الحسن أيضاً قال: من أهلِ أصبهان، يقال له: ذو ظفر، طولُه أربعةُ أشبار.

﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تُسْلِم فتَطْهُر من الذنوب. وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: هل لك أنْ تشْهَد أن لا إلهَ إلاَّ الله[٦].

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٢-٢٣٣ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٩ ، ونسبه الزجاج لطرفة وكذلك الفارسي في الحجة ٦/ ٣٧٢ ، وليس في ديوانه. ونسب لعدي بن زيد، كما في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٥ ، ومعجم البلدان ٤/ ٤٥ ، وزاد المسير ٥/ ٢٧٤ ، واللسان (طوي). والقراءة بكسر الطاء في القراءات الشاذة ص١٦٨ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٨٠ .

(٣) ١٤/ ٢٥ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٣/ ١٠٥ .

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٨٨ .

(٦) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٢٠٥) من طريق عكرمة عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٨١ عن عكرمة.

أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: لا ربَّ لكم فوقي.

ويُروَى: أنَّ إبليسَ تَصَوَّر لفرعون في صورة الإنس بمصرَ في الحمام، فأنكره فرعون. فقال له إبليس: ويْحَك! أمَا تَعْرِفُني؟ قال: لا. قال: وكيف وأنت خلقتني؟ أَلَسْتَ القائلَ: أنا ربُّكم الأعلى! ذكره الثعلبيُّ في كتاب «العرائس»[(١)].

وقال عطاء: كان صنع لهم أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها، فقال: أنا ربُّ أصنامِكم. وقيل: أراد القادةَ والسادةَ، هو ربُّهم، وأولئك هم أربابُ السَّفِلة.

وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ: فنادى فحشر[(٢)].

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: نكالَ قولِه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨] وقولِه بَعْدُ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قاله ابن عباس ومجاهدٌ وعِكرمة[(٣)]. وكان بين الكلمتين أربعون سنة؛ قاله ابن عباس[(٤)]. والمعنى: أمْهَلَه في الأُولى، ثم أخَذَه في الآخرة، فعذَّبه بكلِمتَيْه.

وقيل: نكالُ الأُولى: هو أن أغرقَه، ونكالُ الآخرة: العذابُ في الآخرة. وقاله قتادةُ وغيرُه[(٥)].

وقال مجاهدٌ: هو عذابُ أولِ عمرِه وآخِرِه[(٦)].

وقيل: الآخرةُ قولُه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والأُولى تكذيبُه لموسى. عن قتادة أيضاً[(٧)].

---

(١) لم نقف عليه في المطبوع منه.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٨٤-٨٥ عن ابن عباس ومجاهد، وأخرجه عن عكرمة عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٣.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٨٤، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٩٨. وأخرجه الطبري أيضاً ٢٤/ ٨٦ عن مجاهد.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٩٨، والوسيط ٤/ ٤٢٠.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٩٨، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٨٧، وفيه: عمله، بدل: عمره.

(٧) ذكره الرازي ٣١/ ٤٣ دون نسبة.

و«نكالَ» منصوبٌ على المصدر المؤكِّدِ في قول الزجّاج؛ لأنَّ معنى أخَذَه الله: نكَّل الله به[١]، فأخرَجَ مكانَ مصدرٍ من معناه، لا من لَفْظِه. وقيل: نُصِبَ بنزْعِ حرفِ الصِّفَة، أي: فأخَذَه الله بنكال الآخرة، فلمَّا نُزِعَ الخافِضُ نُصِب. وقال الفرَّاء: أي: أخَذَه الله أخْذاً نكالاً[٢]، أي: للنكال.

والنكال: اسمٌ لما جُعِلَ نَكالاً للغير، أي: عقوبةً له حتى يَعْتَبِر به. يقال: نَكَّلَ فلانٌ بفلان: إذا أثْخَنه عقوبةً. والكلمةُ من الامتناع، ومنه النُّكولُ عن اليمين، والنِّكْلُ: القيد. وقد مضى في سورة المزَّمل[٣]، والحمد لله. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ أي: اعتباراً وعِظَةً. ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ أي: يخافُ الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

قولُه تعالَى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾: يريدُ أهلَ مكةَ، أي: أخَلْقُكم بعدَ الموتِ أشدُّ في تقديركم ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ﴾، فمَنْ قَدَر على السماء قَدَر على الإعادة، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾ [يس: ٨١]، فمعنى الكلامِ التقريعُ والتوبيخُ.

ثم وَصَف السماءَ فقال: ﴿بَنَىٰهَا﴾ أي: رَفَعها فوقكم كالبناء. ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي: أَعْلَى سَقْفَها في الهواء؛ يقال: سَمَكْتُ الشيءَ، أي: رفعته في الهواء، وسَمَكَ الشيءُ سُمُوكاً: ارتفع. وقال الفرَّاء: كلُّ شيءٍ حَمَل شيئاً من البناء وغيره فهو سَمْك. وبناءٌ مَسْمُوك، وسَنامٌ سامِكٌ تامك، أي: عالٍ، والمسموكات: السَّماوات. ويقال:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٨٠ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٣ وإعراب القرآن، للنحاس ٥/ ١٤٤ والعبارة فيهما: فأخذه الله أخذاً نكالاً للآخرة والأولى.

(٣) ٢١/ ٣٣٥ - ٣٣٦ .

اسمُكْ في الرَّيْم، أي: اصْعَدْ في الدرجة[١].

قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: خَلَقها خَلْقاً مستوياً، لا تَفاوُتَ فيه، ولا شُقوقَ، ولا فُطُور. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جَعَلَه مُظْلماً؛ غَطَشَ الليلُ وأغْطَشَه الله، كقولك: ظَلِم وأظْلَمه الله. ويقال أيضاً: أغْطَشَ الليلُ بنَفْسِه، وأغْطَشَه الله، كما يقال: أظْلَم الليلُ، وأظْلَمه الله. والغَطَشُ والغَبَش: الظُّلْمةُ. ورجلٌ أغْطَشُ، أي: أَعْمَى، أو شبيهٌ به، وقد غَطِشَ، والمرأةُ غَطشاءُ، ويقال: ليلةٌ غَطشاءُ، وليلٌ أغْطَشُ. وفلاةٌ غَطْشَى: لا يُهتدَى لها؛ قال الأعشى:

ويَهْماءَ بالليلِ غَطْشَى الفَلا ةِ يُؤْنِسني صوتُ فَيَّادِها[٢]

وقال الأعشى أيضاً:

عَقَرْتُ لَهُمْ مَوْهِناً ناقتي وغامِرُهُمْ مُدْلَهِمٌّ غَطِشْ[٣]

يعني بغامرِهم: ليلَهم؛ لأنه غَمَرَهم بسواده.

وأضاف الليلَ إلى السماء لأنَّ الليل يكونُ بغروب الشمس، والشمسُ مضافٌ إلى السماء، ويقال: نجومُ الليلِ، لأنَّ ظهورها بالليل.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي: أبرزَ نهارَها وضوءَها وشمسها. وأضاف الضُّحى إلى السماء كما أضاف إليها الليل[٤]؛ لأنَّ فيهاسببَ الظَّلام والضياءِ، بغُروب[٥]

---

(١) الصحاح (سمك). وذكر القالي في الأمالي ١/ ١٦٠ عن أبي عمرو بن العلاء قال: أتيت دار قوم باليمن أسأل عن رجل، فقال لي رجل منهم: اسمُك في الرَّيم، أي: اعل في الدرجة.

(٢) ديوان الأعشى ص١٢٣ ، وتهذيب اللغة ١٦/ ١٦١ ، والصحاح (غطش)، واللسان (غطش) وفيه: الأرض اليهماء: التي لا يُهتَدى فيها لطريق، والغطش مثله. وقوله: فيادها، هو ذَكَر البوم. القاموس (فيد).

(٣) لم نقف عليه في ديوان الأعشى، وهو في جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ١/ ١٢١ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٤ ووقع في الجمهرة: وغامرنا، وفي المحرر: وليلهم. قوله: موهناً، هو نحوٌ من نصف الليل، أو بعد ساعة منه. القاموس (وهن).

(٤) في النسخ الخطية: كما أضاف الظلمة.

(٥) في (م): وهو غروب.

الشمسِ وطُلوعها.

و﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي: بَسَطَها[١]. وهذا يشيرُ إلى كونِ الأرضِ بعدَ السماء. وقد مضى القولُ فيه في أول «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآية: ٢٩] مستوفًى. والعربُ تقول: دَحَوْتُ الشيءَ أدْحُوه دَحْواً: إذا بَسَطْته. ويقال لعشِّ النعامة: أُدحِيٌّ؛ لأنَّه مبسوطٌ على وجه الأرض[٢]. وقال أميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ:

وبَثَّ الخَلْقَ فيها إذ دَحاها فَهُمْ قُطَّانُها حتى التَّنادي[٣]

وأنشد المبرِّد:

دَحَاها فلمَّا رآها اسْتَوتْ على الماءِ أرْسَى عليها الجبالا[٤]

وقيل: دحاها: سوَّاها، ومنه قولُ زيد بنِ عمرو:

وأسْلَمتُ وجهي لمَن أسْلَمَتْ له الأرضُ تحمِل صَخْراً ثِقالا

دحاها فلمَّا اسْتَوتْ شَدَّها بأيْدٍ وأرْسَى عليه الجبالا[٥]

وعن ابن عباس: خَلَق الله الكعبةَ ووَضَعَها على الماء على أربعةِ أركان قبل أن يخلُقَ الدنيا بألْفَيْ عامٍ، ثم دُحِيت الأرضُ من تحت البيت[٦].

وذَكَر بعضُ أهلِ العلم: أنَّ «بعد» في موضع «مع» كأنه قال: والأرضَ مع ذلك

(١) أخرج الطبري ٢٤/ ٩٥ هذا القول على قتادة والسدي وسفيان.

(٢) في الصحاح (دحا): وأدْحِيُّها (يعني النعامة): موضعها الذي تفرِّخ فيه؛ لأنها تَدْحوه برجلها ثم تبيض فيه، وليس للنعام عُشٌّ. ومثله في غريب الحديث للخطابي ٣/ ٨١ ، واللسان (دحا).

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٩٩ ، وسلف ١٨/ ٣٥٣ برواية: سكانها، بدل: قطانها.

(٤) البيت لزيد بن عمرو بن نفيل، وهو بهذه الرواية في سيرة ابن هشام ١/ ٢٣١ ، وسيكرره المصنف بنحوه مع بيت آخر من القصيدة نفسها.

(٥) الأغاني ٣/ ١٢٨ ، والنكت والعيون ٦/ ١٩٩ ، واللفظ منه، ووقع في الأغاني: سواء، بدل: بأيد.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٩٣ .

دحاها، كما قال تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم:١٣] ومنه قولُهم: أنت أحمقُ وأنت بعد هذا سَيِّئُ الخُلُقِ[١]؛ قال الشاعر:

فقلتُ لها فِيئي[٢] إليكِ فإنَّني   حَرَامٌ وإنِّي بعدَ ذاكَ لَبيبُ[٣]

أي: مع ذلك لبيب.

وقيل: «بعدَ» بمعنى: قَبْلَ، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء:١٠٥] أي: من قَبْلِ الفرقان؛ قال أبو خِرَاش الهذلي:

حَمِدْتُ إلهي بَعْدَ عروةَ إذ نجا   خِراشٌ وبعضُ الشرِّ أهْوَنُ من بَعْضِ[٤]

وزَعَموا أنَّ خِراشاً نجا قبلَ عروة.

وقيل: «دحاها» حَرَثَها وشقَّها. قاله ابن زيد[٥]. وقيل: «دحاها»: مهَّدها للأقْوات. والمعنى مُتَقارِب.

وقراءةُ العامة: «والأرضَ» بالنصب، أي: دحا الأرض. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون: «والأرضُ» بالرفع[٦] على الابتداء؛ لرجوع الهاء.

ويقال: دحا يَدْحُو دَحْواً، ودَحَى يَدحَى دَحْياً، كقولهم: طَغَى يَطْغَى ويَطْغُو،

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٩٣، والأضداد لابن الأنباري ص١١٠. وأخرج الطبري هذا القول عن مجاهد والسدي.

(٢) في (م): عني.

(٣) البيت للمضرَّب بن كعب بن زهير بن أبي سلمى، كما في مجاز القرآن ٢/ ٣٠٠، وأمالي القالي ٢/ ١٧١، والاقتضاب ص٤٧٥، وهو دون نسبة في أدب الكاتب ص٦١٥، والأضداد لابن الأنباري ص١١٠. قال البطليوسي: ويروى لشبل بن الصامت المرِّي، وقال في شرحه: معنى فيئي: ارجعي، والحرام: المُحْرِم. ولبيب هنا بمعنى مُلَبٍّ، وصف أن محبوبته لقيها وهو مُحرِمٌ مُلبٍّ فتورَّع عن الكلام معها.

(٤) الأضداد لابن الأنباري ص١٠٨، والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ١٥٧. قال الشارح: عروة أخوه، وخراش ابنه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٩٥، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٩٩.

(٦) القراءات الشاذة ص١٦٨ عن الحسن.

وطغِيَ يَطْغَى، ومحا يَمحو ويمْحى، ولحَى العود يَلْحَى ويَلْحو[١]، فَمَن قال: يدحو، قال: دَحَوْتُ، ومَن قال: يَدحَى، قال: دَحَيْتُ.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ أي: أخْرجَ من الأرض ﴿مَآءَهَا﴾ أي: العيونَ المتفجِّرة بالماء ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي: النباتَ الذي يُرعَى. وقال القُتَبيُّ[٢]: دلَّ بشيئين على جميع ما أخرَجه من الأرض قُوتاً ومتاعاً للأنام، من العُشْبِ والشَّجرِ والحَبِّ والتَّمرِ والعَصْفِ والحَطَبِ واللِّباسِ، والنارِ والملح؛ لأنَّ النار من العيدان، والمِلْحَ من الماء.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ قراءةُ العامَّةِ: «والجبالَ» بالنَّصب، أي: وأرْسَى الجِبالَ أرْساها، يعني: أثْبتَها فيها أوْتاداً لها. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم: «والجِبالُ» بالرفع على الابتداء[٣].

ويقال: هلاَّ أدْخَل حرفَ العطفِ على «أخرج». فيقال: إنه حالٌ بإضمارِ قد، كقوله تعالى: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩٠][٤].

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ أي: منفعةً لكم ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ من الإبل والبقر والغنم. و«متاعاً» نصب على المصدر من غيرِ اللَّفْظ؛ لأنَّ معنى «أَخْرجَ منها ماءَها ومَرْعاها»: أمْتعَ بذلك[٥]. وقيل: نصب بإسقاطِ حرفِ الصِّفةِ، تقديرُه: لتتمتَّعوا به متاعاً.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: الداهيةُ العُظْمَى، وهي النفخةُ الثانيةُ

---

(١) أي: قشره، في اللسان (لحا): لَحَوْتُ العود ألحوه وألحاه: إذا قشرته.

(٢) في تأويل مشكل القرآن ص٤ .

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٨ ، والمحتسب ٢/ ٣٥٠ .

(٤) الكشاف ٤/ ٢١٥ .

(٥) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٨١ .

التي يكونُ معها البعثُ؛ قاله ابن عباس في روايةِ الضحَّاكِ عنه، وهو قولُ الحسن[١].

وعن ابن عباسٍ أيضاً والضحاك: أنَّها القيامة[٢]، سمِّيتْ بذلك لأنها تَطمُّ على كلِّ شيءٍ، فتعمُّ ما سواها لِعظَمِ هَوْلها، أي: تَغْلبهُ. وفي أمثالهم: جرى الوادي فطَمَّ على القَرِيِّ[٣].

المبرِّد: الطامَّةُ عند العرب: الداهيةُ التي لا تُستَطاع، وإنَّما أُخِذَتْ فيما أحْسبُ من قولهم: طمَّ الفرسُ طميماً: إذا استَفْرَغَ جهدَه في الجَرْي، وطمَّ الماء: إذا ملأ النهرَ كلَّه. غيره: مأخوذةٌ من طَمَّ السيلُ الرَّكيَّة، أي: دَفَنَها، والطَّمُّ: الدَّفْنُ والعُلُوّ[٤]. وقال القاسم بن الوليد الهمْدانيُّ: الطامَّةُ الكبرى حين يُساقُ أهلُ الجنةِ إلى الجنة، وأهلُ النار إلى النار. وهو معنى قولِ مجاهد[٥] وقال سفيان: هي الساعةُ التي يُسْلَم فيها أهلُ النارِ إلى الزَّبانية. أي: الداهيةُ التي طَمَّتْ وعَظُمَتْ؛ قال:

إنَّ بعضَ الحبِّ يُعمِي ويُصِمّ وكذاك البغضُ أدهَى وأطَمّ[٦]

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ أي: ما عَمِلَ من خيرٍ أو شرٍّ. ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ أي: ظهرت ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ قال ابن عباس: يُكشَفُ عنها فيراها تَتلَظَّى كلُّ ذي بَصرٍ. وقيل: المرادُ الكافرُ؛ لأنه الذي يرى النارَ بما فيها من أصناف العذاب. وقيل: يراها المؤمنُ ليعرف قَدْرَ النعمةِ ويَصْلَى الكافرُ بالنار. وجوابُ «فإذا جاءتِ الطامَّةُ» محذوفٌ، أي:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٠ عن الحسن، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤ عن ابن عباس والحسن.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤ ، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ٢٤/ ٩٧ .

(٣) جمهرة الأمثال ١/ ٣٠٠، ومجمع الأمثال ١/ ١٥٩ ، والمستقصى ٢/ ٥١ . قال الزمخشري: القري: هو مستجمَعُ الماء الكثير، يضرب مثلاً في غلبةِ الرجل قرنَه. وقال العسكري: يضرب مثلاً للأمر العظيم، يجيءُ فيعم الصغير والكبير.

(٤) تفسير الرازي ٣١/ ٤٩ ، والرَّكِيَّة: البئر. القاموس (ركو).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٠٠ ، وقول القاسم بن الوليد أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٥٨ ، والطبري ٢٤/ ٩٧ . والقاسم بن الوليد هو أبو عبد الرحمن الكوفي القاضي، روى عن المنهال بن عمرو وقتادة ومجاهد وغيرهم، توفي سنة (١٤١هـ). التهذيب ٣/ ٤٢٣ .

(٦) لم نقف عليه.

إذا جاءت الطامةُ، دخل أهلُ النارِ النارَ وأهلُ الجنةِ الجنةَ[١].

وقرأ مالك بن دينار: «وَبَرَزَتِ الجحِيمُ»[٢]. عِكرمةُ وغيرُه: «لِمن تَرى» بالتاء، أي: لمن تَراه الجحيم، أو لمن تَراه أنتَ يا محمد. والخطابُ له عليه الصلاة والسلام، والمرادُ به الناس[٣].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تَجاوزَ الحدَّ في العِصيان. قيل: نزلت في النَّضر وأبيه[٤] الحارث، وهي عامةٌ في كلِّ كافرٍ آثَرَ الحياةَ الدنيا على الآخرة.

وروي عن يحيى بن أبي كثير قال: مَن اتَّخذ مِن طعامٍ واحدٍ ثلاثةَ ألوانٍ فقد طَغَى.

وروى جُوَيبر عن الضحَّاك قال: قال حذيفةُ: أخْوَفُ ما أخافُ على هذه الأمَّةِ أنْ يُؤْثِروا ما يَرَوْن على ما يَعلَمون[٥].

ويُروَى أنه وُجِدَ في الكتب: إنَّ الله جلَّ ثناؤه قال: لا يُؤْثِرُ عبدٌ لي دنياهُ على آخرته، إلاَّ بَثَثْتُ عليه همومَه وضَيَّعْتُه، ثم لا أُبالي في أيِّها هَلَك.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: مأواه. والألفُ واللَّامُ بَدَلٌ من الهاء. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ

(١) تفسير الرازي ٣١/ ٥١، وذكر الرازي وجهاً آخر، وهو أن يكون الجواب: «فإن الجحيم هو المأوى»، قال: وكأنه جزاء مركب على شرطين، أي: إذا جاءت الطامة الكبرى، فمن جاء طاغياً، فإن الجحيم مأواه.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤.

(٣) المحتسب ٢/ ٣٥١.

(٤) في النسخ: وابنه، والمثبت من تفسير الرازي ٣١/ ٥١ وفيه: «طغى وأثر الحياة الدنيا» النضر وأبوه الحارث.

(٥) أخرجه هناد في الزهد (٩٣٥)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٧٨.

﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: حَذِر مقامَه بين يدي ربِّه. وقال الربيع: مقامه يومَ الحساب[١]. وكان قتادةُ يقول: إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ مَقاماً قد خافه المؤمنون. وقال مجاهد: هو خوفُه في الدنيا من الله عزَّ وجلَّ عند مُواقَعةِ الذَّنْبِ فيُقْلِع[٢]. نظيرُه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: زَجَرها عن المعاصي والمَحارِم. وقال سهل: تَرْكُ الهوى مِفتاحُ الجنة؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾. قال عبد الله بن مسعود: أنتم في زمانٍ يقودُ الحقُّ الهوى، وسيأتي زمانٌ يقودُ الهَوَى الحقَّ، فنعوذُ بالله من ذلك الزمان. ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: المنزل.

والآيتان نزلتا في مصعَب بن عُمير وأخيه عامر بنِ عمير، فروَى الضحَّاك عن ابن عباسٍ قال: أمَّا مَن طَغَى، فهو أخٌ لمصعب بنِ عمير أُسِر يومَ بدر، فأخذته الأنصار فقالوا: مَن أنت؟ قال: أنا أخو مُصعَب بنِ عُمير، فلم يشدُّوه في الوَثاق، وأكرموه وبيَّتوه عندهم، فلمَّا أصبحوا حدَّثوا مصعَب بنَ عُمير حديثَه، فقال: ما هو لي بأخٍ، شُدُّوا أسيركم، فإنَّ أمَّه أكثرُ أهلِ البطحاءِ حُلِيّاً ومالاً. فأوثَقوه حتى بعثتْ أمُّه في فِدائه. «وأما من خاف مقامَ ربِّه» فمصعَب بنُ عمير، وَقَى رسول الله ﷺ بنفسه يومَ أُحُدٍ حين تَفرَّقَ الناس عنه، حتى نفذت المشاقصُ في جَوْفه ـ وهي السهامُ ـ فلمَّا رآه رسولُ الله ﷺ مُتشحِّطاً في دَمِه قال: «عندَ الله أحْتَسِبُكَ»، وقال لأصحابه: «لقد رأيتُه وعليه بُردانِ ما تُعرَفُ قيمتُها، وإنَّ شِراكَ نَعْلَيْه من ذَهب»[٣]. وقيل: إنَّ مصعب بنَ عمير قَتَل أخاه عامِراً يومَ بدر[٤].

---

(١) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٠ .

(٢) أخرج قول قتادة وقول مجاهد الطبري ٢٢/ ٢٣٦-٢٣٧ .

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢١٩ مختصراً دون نسبة، وسلف ١٠/ ٧٦ خبر مصعب بن عمير مع أخيه عندما أسر يوم بدر.

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢١٩ ، إلا أنه ذكر أبا عزيز بدل عامر، وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨١ عن هذا الخبر والذي قبله: لم أجده. ا هـ وينظر ما سلف ١٧/ ٣٠٧-٣٠٨ .

وعن ابن عباس أيضاً قال: نزلتْ هذه الآيةُ في رجلين: أبي جهل بن هشام المخزوميّ، ومصعب بنِ عمير العَبدَريّ.

وقال السُّدِّيُّ: نزلتْ هذه الآيةُ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ في أبي بكرٍ الصِّديقِ ﷺ، وذلك أنَّ أبا بكر كان له غلامٌ يأتيه بطعام، وكان يسأله: مِن أين أتيتَ بهذا؟ فأتاه يوماً بطعامٍ فلم يسأله وأكلَه، فقال له غلامُه: لِمَ لا تسألُني اليوم؟ فقال: نسيتُ، فمِنْ أين لك هذا الطعام؟ فقال: تَكَهَّنْتُ لقومٍ في الجاهلية فأعطَوْنيه. فتقايأه من ساعته وقال: يا ربِّ، ما بقي في العروق فأنت حَبَسْتَه، فنزلت: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾[1].

وقال الكلبيُّ: نزلتْ في مَن همَّ بمعصية وقَدَر عليها في خلوة، ثم تركها مِن خوفِ الله. ونحوه عن ابن عباس[2]. يعني مَن خاف عند المعصيةِ مَقامَه بين يدَي الله، فانتهى عنها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ قال ابن عباسٍ: سأل مُشركو مكةَ رسولَ الله ﷺ: متى تكون الساعةُ استهزاءً، فأنزل الله عزَّ وجلَّ الآية[3].

وقال عُروة بنُ الزبير في قوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ لم يَزَل النبيُّ ﷺ يسأل عن الساعة حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾[4]. ومعنى «مُرْساها»، أي: قيامُها. قال الفرَّاء: رُسُوُّها: قيامُها، كرسوِّ السفينةِ[5]. وقال أبو عبيدة[6]: أي:

(١) الورع لأحمد ص٨٤، وحلية الأولياء ١/ ٣١، وليس فيهما ذكر نزول الآية.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٥.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٤.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٧.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٤، وقال الفراء: وليس قيامها كقيام القائم على رجله ونحوه، إنما هو كقولك: قام العدل، وقام الحق، أي: ظهر وثبت.

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٥.

مُنتَهاها، ومرسَى السفينةِ حيث تنتهي. وهو قولُ ابنِ عباس. الربيعُ بن أنس: متى زمانُها[١]. والمعنى متقارِبٌ. وقد مضى في «الأعراف» بيانُ ذلك[٢]. وعن الحسن أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تقومُ الساعةُ إلَّا بغَضبَةٍ يغضَبُها ربُّك»[٣].

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي: في أيِّ شيءٍ أنت يا محمدُ من ذِكرِ القيامةِ والسؤالِ عنها؟ وليس لك السؤالُ عنها. وهذا معنى ما رواه الزُّهريُّ عن عُروةَ بنِ الزُّبير قال: لم يزل النبيُّ ﷺ يسأل عن الساعة حتى نزلت ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ؟ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾[٤] أي: مُنتَهى عِلْمِها؛ فكأنه عليه الصلاة والسلامُ لمَّا أكثَروا عليه سأل الله أن يعرِّفه ذلك. فقيل له: لا تَسأَلْ، فلستَ في شيءٍ من ذلك.

ويجوزُ أن يكون إنكاراً على المشركين في مسألتهم له، أي: فيم أنتَ من ذلك حتى يسألوك بيانَه، ولستَ ممَّن يَعلَمُه. رُوِي معناه عن ابن عباس[٥]. والذِّكرَى بمعنى الذِّكْرِ.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي: مُنتهى عِلْمِها، فلا يُوجَدُ عند غيرِهِ، وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف:١٨٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي: مخوِّفُ، وخَصَّ الإنذارَ بمَن يَخشى؛ لأنَّهم المنتفعون به، وإنْ كان مُنْذِراً لكلِّ مُكلَّفٍ، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس:١٢]. وقراءةُ العامَّةِ: «منذِرُ» بالإضافةِ غيرَ منوَّنٍ؛ طَلَبَ التخفيفِ، وإلَّا فأصلُه التنوين لأنَّه للمستقبل، وإنَّما لا ينوَّنُ في الماضي. قال

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٠ .

(٢) ٩/ ٤٠٥ .

(٣) أخرجه الداني في السنن الواردة في الفتن (٣٧٩)، وهو من مراسيل الحسن، ويرويه عنه الحسن بن دينار، قال عنه ابن حبان: تركه وكيع وابن المبارك، فأما أحمد ويحيى فكانا يكذبانه. الميزان ١/ ٤٨٩ .

(٤) سلف في بداية تفسير هذه الآية.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٠ .

الفرَّاء: يجوزُ التنوينُ وتَرْكُه، كقوله تعالى: ﴿بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق: ٣] و«بالِغٌ أمْرَه» و﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨] و«موهِنٌ كيدَ الكافِرين»[1]، والتنوينُ هو الأصلُ، وبه قرأ أبو جعفر وشَيبةُ والأعرجُ وابنُ مُحيصنٍ وحُميدٌ، وعباسٌ عن أبي عمرو: «منذِرٌ» منوناً[2]، وتكون [مَن][3] في موضعِ نصب. والمعنى[4]: إنَّما ينتفعُ بإنذارِكَ مَن يخشَى الساعة.

وقال أبو عليٍّ[5]: يجوزُ أن تكون الإضافةُ للماضي، نحو: [هذا] ضاربُ زيدٍ أمسِ؛ لأنَّه قد فَعَل الإنذار.

والآيةُ ردٌّ على مَن قال: أحوالُ الآخرة غيرُ مَحْسوسةٍ، وإنَّما هي راحةُ الرُّوحِ أو تألُّمها من غير حِسٍّ.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ يعني الكفارَ يَرَوْنَ الساعةَ ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ أي: في دُنْياهُم. ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾ أي: قَدْرَ عشيةٍ ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي: أو قَدْرَ الضُّحا الذي يلي تلك العَشيَّةَ، والمرادُ تقليلُ مدَّةِ الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ورَوَى الضحاكُ عن ابن عباس: كأنَّهم يومَ يَرَوْنَها لم يلبثوا إلَّا يوماً واحداً.

وقيل: «لم يلبثوا» في قبورهم «إلَّا عشِيةً أو ضُحاها»، وذلك أنَّهم استقصَروا مدَّة لَبثِهِم في القبور لِمَا عاينوا من الهول.

وقال الفرَّاء: يقولُ القائلُ: وهل للعشيةِ ضُحًا؟ وإنَّما الضُّحا لصَدرِ النَهارِ، ولكنْ

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٤، قال الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢١٩: فإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة، كقولك: هو منذرُ زيدٍ أمس.

(٢) النشر ٢/ ٣٩٨ عن أبي جعفر، ورواية عباس عن أبي عمرو في السبعة ص٦٧١، والمشهور عن أبي عمرو: «منذرُ» بالإضافة.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) بعدها في (م): نصب، ولا معنى لها.

(٥) في الحجة ٦/ ٣٧٥، وما سيأتي بين حاصرتين.

أضيفَ الضُّحا إلى العشية ـ وهو اليومُ الذي يكونُ فيه ـ على عادةِ العرب؛ يقولون: آتيكَ الغَدَاة أو عشيَّتها، وآتيكَ العشيةَ أو غَدَاتَها، فتكونُ العشيةُ في معنى آخِرِ النهار، والغداةُ في معنى أوّلِ النهار؛ قال: وأنشدني بعضُ بني عقيل:

نـحـنُ صَـبَـحـنـا عـامِـراً فـي دارِهـا   جُـرداً تَـعَـادَى طَـرَفَـيْ نـهـارِهـا

عـشِـيـةَ الـهـلالِ أو سِـرَارِهـا[1]

أراد: عشية الهلالِ، أو عشيةِ سِرارِ العشيةِ، فهذا أشدّ[2] من: آتيكَ الغداةَ أو عَشِيَّها.

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٤، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٠١، وزاد المسير ٩/ ٢٥، وليس عندهم إلا البيتان الأول والثالث، والأبيات الثلاثة في تهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٥، واللسان (سرر)، وذكر الأول والثاني صاحب اللسان (صبح) وقال: يريد أتيناها صباحاً بخيلٍ جُرْدٍ.

(٢) في مطبوع معاني القرآن للفراء: أَسَدُّ.

تفسير سورة النازعات

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤) ﴾ .

قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، وسعيد بن جبير ، وأبو صالح ، وأبو الضحى ، والسُّدى : ﴿ النَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ : الملائكة ، يعنون حين تنزع أرواح بنى آدم ، فمنهم من تأخذ روحه بعُنف فتُغرق فى نزعها ، و [منهم] (١) مَن تأخذ روحه بسهولة وكأنما حَلَّته من نشاط ، وهو قوله : ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾، قاله ابن عباس .

وعن ابن عباس : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ : هى أنفس الكفار ، تُنزَع ثم تُنشَط ، ثم تغرق فى النار . رواه ابن أبى حاتم .

وقال مجاهد : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ : الموت . وقال الحسن ، وقتادة : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ : هى النجوم .

وقال عَطَاءُ بنُ أبى رَباح فى قوله : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ و ﴿ النَّاشِطَاتِ ﴾ : هى القسىّ فى القتال . والصحيح الأول ، وعليه الأكثرون .

وأما قوله : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ ، فقال ابن مسعود : هى الملائكة . ورُوى عن على ، ومجاهد ،وسعيد بن جُبَير ، وأبى صالح مثلُ ذلك .

وعن مجاهد : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ : الموت . وقال قتادة : هى النجوم . وقال عطاء بن أبى رباح : هى السفن .

وقوله : ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ : رُوى عن على ، ومسروق ، ومجاهد ،وأبى صالح ، والحسن البصرى : يعنى الملائكة ؛ قال الحسن : سبقت إلى الإيمان والتصديق به . وعن مجاهد : الموت . وقال قتادة : هى النجوم . وقال عطاء : هى الخيل فى سبيل الله .

---

(١) زيادة من م.

وقوله : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ ، قال على ، ومجاهد ، وعطاء ، وأبو صالح ، والحسن ، وقتادة، والربيع بن أنس ، والسدى : هى الملائكة ــ زاد الحسن : تدبر الأمر من السماء إلى الأرض. يعنى : بأمر ربها عز وجل . ولم يختلفوا فى هذا ، ولم يقطع ابن جرير بالمراد فى شىء من ذلك ، إلا أنه حكى فى ﴿ الْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ : أنها الملائكة ، ولا أثبت ولا نفى .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ ، قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية. وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ،وغير واحد .

وعن مجاهد : أما الأولى ــ وهى قوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ ــ فكقوله جلت عظمته : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ [المزمل: ١٤] ، والثانية ــ وهى الرادفة ــ فهى كقوله : ﴿ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة: ١٤] .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وَكيع ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبى بن كعب ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » . فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن جعلت صلاتى كلها عليك ؟ قال : «إذاً يكفيك الله ما أهَمَّك من دنياك وآخرتك » .

وقد رواه الترمذى ، وابن جرير، وابن أبى حاتم ، من حديث سفيان الثورى ،بإسناده مثله [١]، ولفظ الترمذى وابن أبى حاتم : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ».

وقوله : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ : قال ابن عباس : يعنى خائفة . وكذا قال مجاهد ، وقتادة .

﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ أى : أبصار أصحابها .وإنما أضيف إليها ؛ للملابسة ، أى : ذليلة حقيرة ؛ مما عاينت من الأهوال .

وقوله : ﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ ؟ يعنى : مشركى قريش ومن قال بقولهم فى إنكار المعاد ، يستبعدون وقوعَ البعث بعد المصير إلى الحافرة ، وهى القبور ، قاله مجاهد . وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾ ؟ وقرئ : « ناخرة ».

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : أى بالية . قال ابن عباس : وهو العظم إذا بلى ودَخَلت الريح فيه . ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ .

وعن ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبى مالك ، والسدى ، وقتادة : الحافرة : الحياة بعد الموت . وقال ابن زيد : الحافرة : النار . وما أكثر أسماءها ! هى النار، والجحيم ،وسقر ،وجهنم ، والهاوية ، والحافرة ، ولظى ، والحُطَمة .

وأما قولهم : ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ ، فقال محمد بن كعب : قالت قريش : لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن .

(١) المسند (٥/١٣٦) ، وسنن الترمذى برقم (٢٤٥٧) ، وتفسير الطبرى (٣٠/ ٢١) .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أى : فإنما هو أمر من الله لا مثنوية فيه ولا تأكيد ، فإذا الناس قيام ينظرون ، وهو أن يأمر تعالى إسرافيلَ فينفخ فى الصور نفخَة البعث ، فإذا الأولون والآخرون قيامٌ بين يَدَى الربّ عز وجل ينظرون ، كما قال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء:٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل: ٧٧].

قال مجاهد : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ : صيحة واحدة .

وقال إبراهيم التيمى : أشد ما يكون الرب غَضَباً على خلقه يوم يبعثهم .

وقال الحسن البصرى : زجرة من الغضب . وقال أبو مالك ، والربيع بن أنس : زجرة واحدة : هى النفخة الآخرة .

وقوله : ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ ، قال ابن عباس : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : الأرض كلها . وكذا قال سعيد بن جُبَير ، وقتادة ، وأبو صالح .

وقال عكرمة ، والحسن ، والضحاك ، وابن زيد : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : وجه الأرض .

وقال مجاهد : كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها . قال : و ﴿السَّاهِرَةِ ﴾ : المكان المستوى .

وقال الثورى : ﴿السَّاهِرَةِ ﴾ : أرض الشام ، وقال عثمان بن أبى العاتكة : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : أرض بيت المقدس . وقال وهب بن مُنَبه : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : جبل إلى جانب بيت المقدس . وقال قتادة أيضا: ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : جهنم .

وهذه أقوال كلها غريبة ، والصحيح أنها الأرض وجهها الأعلى .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا خَزَر بن المبارك الشيخ الصالح ، حدثنا بشر ابن السرى ، حدثنا مصعب بن ثابت ، عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد الساعدى : ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال : أرض بيضاء عفراء كالخُبزَة النَقىّ .

وقال الربيع بن أنس : ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ ، يقول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم:٤٨] ، ويقول : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ [طه:١٠٥، ١٠٦] . وقال:﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف:٤٧] : وبرزت الأرض التى عليها الجبال ، وهى لا تعد من هذه الأرض ، وهى أرض لم يعمل عليها خطيئة ، ولم يَهرَاق عليها دم .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ

فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٢٦) ﴾ .

يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه ابتعثه إلى فرعون ، وأيده بالمعجزات ، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه ، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر . وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به ؛ ولهذا قال فى آخر القصة: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ .

فقوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ ؟ أى : هل سمعت بخبره ؟ ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ أى : كلمه نداء، ﴿ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ أى : المطهر ، ﴿ طُوًى ﴾ : وهو اسم الوادى على الصحيح ، كما تقدم فى سورة «طه» . فقال له : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أى : تجبر وتمرد وعتا ، ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ ؟ أى : قل له : هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تَزَكَّى به ، أى : تسلم وتطيع. ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أى : أدلك إلى عبادة ربك ، ﴿ فَتَخْشَىٰ ﴾ أى : فيصير قلبك خاضعا له مطيعا خاشياً بعد ما كان قاسيا خبيثا بعيدا من الخير . ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ يعنى : فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قويةً، ودليلا واضحا على صدق ما جاءه به من عند الله ، ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾ أى: فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة . وحاصلُه أنه كفرَ قلبُه فلم ينفعل [1] لموسى بباطنه ولا بظاهره ، وعلمُهُ بأن ما جاء به أنه حق لا يلزم منه أنه مؤمن به ؛ لأن المعرفة علمُ القلب ، والإيمان عمله ،وهو الانقياد للحق والخضوع له .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ أى : فى مقابلة الحق بالباطل ، وهو جَمعُهُ السحرةَ ليقابلوا ما جاء به موسى ، عليه السلام ، من المعجزة الباهرة ، ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ أى : فى قومه ، ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد : وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] بأربعين سنة.

قال الله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ أى : انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتمردين فى الدنيا ،﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [هود: ٩٩] ، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١] . هذا هو الصحيح فى معنى الآية، أن المراد بقوله : ﴿ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ أى : الدنيا والآخرة ، وقيل : المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية . وقيل : كفره وعصيانه . والصحيح الذى لا شك فيه الأول .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ أى : لمن يتعظ وينزجر .

---

(١) فى أ : « فلم يفعل » .

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا(٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٣) ﴾ .

يقول تعالى محتجاً على منكرى البعث فى إعادة الخلق بعد بدئه : ﴿ أَأَنتُمْ ﴾: أيها الناس ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ﴾ ؟ يعنى: بل السماءُ أشدّ خلقاً منكم ، كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر:٥٧] ، وقال : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (١) ﴾ [يس:٨١] ، فقوله : ﴿ بَنَاهَا ﴾، فسره بقوله : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ أى :جعلها عالية البناء ، بعيدة الفناء ،مستوية الأرجاء ،مكللة بالكواكب فى الليلة الظلماء.

وقوله : ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أى : جعل ليلها مظلماً أسود حالكا ،ونهارها مضيئا مشرقا نيرا واضحا .

قال ابن عباس : أغطش ليلها : أظلمه . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وجماعة كثيرون .

﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أى : أنار نهارها .

وقوله : ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ ، فسره بقوله : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ . وقد تقدم فى سورة « حم السجدة » (٢) أن الأرض خلقت قبل السماء ، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء ، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل . وهذا معنى قول ابن عباس ، وغير واحد ، واختاره ابن جرير .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن جعفر الرقى ، حدثنا عبيد الله ــ يعنى ابن عمرو ــ عن زيد بن أبى أنيسة ، عن المِنْهال بن عَمْرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿دَحَاهَا ﴾ : وَدَحْيُها أن أخرج منها الماء والمرعى ، وشقق [فيها] (٣) الأنهار ، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام ، فذلك قوله : ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ . وقد تقدم تقرير ذلك هنالك.

وقوله : ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أى :قررها وأثبتها وأكَّدها فى أماكنها ، وهو الحكيم العليم ، الرؤوف بخلقه الرحيم .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا العوام بن حَوشب ، عن سليمان بن أبى سليمان ، عن أنس بن مالك ، عن النبى ﷺ قال : « لما خلق الله الأرض جعلت تَميد ، فخلق الجبال فألقاها عليها ، فاستقرت ، فتعجبت الملائكةُ من خلق الجبال فقالت : يا ربِّ ، فهل من

(١) فى م ، أ :« بلى إنه على كل شىء قدير » وهو خطأ .
(٢) عند تفسير الآية : ٩.
(٣) زيادة من أ .

خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال نعم ، الحديد . قالت: يا رب ، فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال : نعم ، النار . قالت : يا رب ، فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال : نعم ، الماء . قالت: يا رب ، فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال : نعم ، الريح. قالت: يا رب، فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال : نعم ،ابن آدم ، يتصدق بيمينه يخفيها من [(١)] شماله» [(٢)] .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابنُ حميد ، حدثنا جرير ، عن عطاء ، عن أبى عبد الرحمن السّلمىّ ، عن على قال : لما خلق الله الأرض قمصت وقالت : تخلق علَىّ آدم وذريته ، يلقون على نتنهم ويعملون علَىّ بالخطايا ، فأرساها الله بالجبال ، فمنها ما ترون ، ومنها ما لا ترون ، وكان أول قَرَار الأرض كلحم الجزور إذا نحر ، يختلج لحمه . غريب [(٣)] .

وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ أى : دحا الأرض فأنبع عيونها ، وأظهر مكنونها ، وأجرى أنهارها ، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها ، وثبت جبالها ، لتستقر بأهلها ويقر قرارها ، كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التى يأكلونها ويركبونها مدةَ احتياجهم إليها فى هذه الدار إلى أن ينتهى الأمد ، وينقضى الأجل .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴾ : وهو يوم القيامة . قاله ابن عباس ، سميت بذلك لأنها تَطُم على كل أمر هائل مفظع ، كما قال تعالى : ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر:٤٦] .

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴾ أى : حينئذ يتذكرُ ابنُ آدم جميع عمله خيره وشره ، كما قال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ [الفجر:٢٣] .

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ أى : أظهرت للناظرين فرآها الناس عيانا ، ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ أى : تَمَرَّد وعتا ، ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى : قدمها على أمر دينه وأخراه ، ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ أى: فإن مصيرَه إلى الجحيم ، وإن مطعمه من الزقوم ، ومشربه من الحميم . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ

---

(١) فى أ :« عن » .

(٢) المسند (٣/ ١٢٤) ، ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٣٦٩) عن محمد بن بشار ، عن يزيد بن هارون به ، وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه » .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٠) .

وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أى : خاف القيام بين يدى الله عز وجل ، وخاف حُكْمَ الله فيه ، ونهى نفسه عن هواها ، وردها إلى طاعة مولاها ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ أى : منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء.

ثم قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا . إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ أى : ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مَردها ومَرجعها إلى الله عز وجل ، فهو الذى يعلم وقتها على التعيين ، ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف:١٨٧] ، وقال هاهنا : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ . ولهذا [١] لما سأل جبريلُ رسولَ الله ﷺ عن وقت الساعة قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » [٢] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ أى : إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه [٣] ،فمن خشى الله وخاف مقامه[٤] ووعيده ،اتبعك فأفلح وأنجح ،والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك.

وقوله: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أى: إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مُدّة الحياة الدنيا ،حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضُحى من يوم .

قال جُويْبر ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾، أما عَشِيَّة : فما بين الظهر إلى غروب الشمس ،﴿ أَوْ ضُحَاهَا ﴾ : ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار.

وقال قتادة : وقت الدنيا فى أعين القوم حين عاينوا الآخرة .

[آخر تفسير سورة « النازعات »] [٥] [ولله الحمد والمنة] [٦]

---

(١) فى م:« وهذا » .

(٢) هذا جزء من حديث جبريل الطويل وهو فى صحيح مسلم برقم(٨) .

(٣) فى م :« وعقابه » .

(٤) فى م: « وخاف عقابه » .

(٥) زيادة من م،أ .

(٦) زيادة من م.

٧٩ — سورة النازعات

(مكية وهى ست وأربعون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ ٧٩ النازعات

وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ ٧٩ النازعات

وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ ٧٩ النازعات

فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ ٧٩ النازعات

فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ٧٩ النازعات

ماقدمه من خير أوشر على أن ما موصولة منصوبة بينظر والعائد محذوف أو ينظر أى شىء قدمت يداه على أنها استفهامية منصوبة بقدمت وقيل المرء عبارة عن الكافر وما فى قوله تعالى (ويقول الكافر * ياليتنى كنت تراباً) ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم قيل معنى تمنيه ليتنى كنت تراباً فى الدنيا فلم أخلق ولم أكلف أو ليتنى كنت ترابا فى هذا اليوم فلم أبعث وقيل يحشر الله تعالى الحيوان فيقتص للجماء من القرناء ثم يرده ترابا فيود الكافر حاله وقيل الكافر إبليس يرى آدم وولده وثوابهم فيتمنى أن يكون الشىء الذى احتقره حين قال خلقتنى من نار وخلقته من طين . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة عم يتساءلون سقاه الله تعالى برد الشراب يوم القيامة والحمد لله وحده .

﴿ سورة النازعات مكية وآياتها ست وأربعون ﴾

١، ٢، ٣ (بسم الله الرحمن الرحيم) (والنازعات غرقا) (والناشطات نشطا) (والسابحات سبحا) ٤، ٥ (فالسابقات سبقا) (فالمدبرات أمراً) إقسام من الله عز وجل بطوائف الملائكة الذين ينزعون الأرواح من الأجساد على الإطلاق كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد أو أرواح الكفرة كما قاله على رضى الله عنه وابن مسعود وسعيد بن جبير ومسروق وينشطونها أى يخرجونها من الأجساد من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها ويسبحون فى إخراجها سبح الغواص الذى يخرج من البحر مايخرج فيسبقون بأرواح الكفرة إلى النار وبأرواح المؤمنين إلى الجنة فيدبرون أمر عقابها وثوابها بأن يهيئوها لإدراك ما أعدلها من الآلام واللذات والعطف مع اتحاد الكل بتنزيل التغاير الذاتى كما فى قوله

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ ٧٩ النازعات

تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ ٧٩ النازعات

[إلى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتائب فى المزدحم] للإشعار بأن كل واحد من الأوصاف المعدودة من معظمات الأمور حقيق بأن يكون على حياله مناطاً لاستحقاق موصوفه للإجلال والإعظام بالإقسام به من غير انضمام الأوصاف الأخر إليه والفاء فى الأخيرين للدلالة على ترتبهما على ما قبلهما بغير مهلة كما فى قوله [يا لهف زيابة ا * صابح فالغانم فالآئب] وغرقا مصدر مؤكد بحذف الزوائد أى إغراقا فى النزع حيث تنزعها من أقاصى الأجساد قال ابن مسعود رضى الله عنه تنزع روح الكافر من جسده من تحت كل شعرة ومن تحت الأظافير وأصول القدمين ثم تغرقها فى جسده ثم تنزعها حتى إذا كادت تخرج تردها فى جسده فهذا عملها بالكفار وقيل يرى الكافر نفسه فى وقت النزع كأنها تغرق وانتصاب نشطاً وسبحاً وسبقاً أيضاً على المصدرية وأما أمراً فمفعول للمدبرات وتنكيره للتهويل والتفخيم ويجوز أن يراد بالسابحات وما بعدها طوائف من الملائكة يسبحون فى مضيهم أى يسرعون فيه فيسبقون إلى ما أمروا به من الأمور الدنيوية والأخروية والمقسم عليه محذوف تعويلا على إشارة ما قبله من المقسم به إليه ودلالة ما بعده من أحوال القيامة عليه وهو لتبعثن فإن الإقسام بمن يتولى نزع الأرواح ويقوم بتدبير أمورها يلوح بكون المقسم عليه من قبيل تلك الأمور لا محالة وفيه من الجزالة ما لا يخفى وقد جوز أن يكون إقساما بالنجوم التى تنزع من المشرق إلى المغرب غرقا فى النزع بأن تقطع الفلك حتى تنحط فى أقصى الغرب وتنشط من برج إلى برج أى تخرج من نشط الثور إذا خرج من بلد إلى بلد وتسبح فى الفلك فيسبق بعضها بعضا فتدبر أمراً نيط بها كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وتبين مواقيت العبادات وحيث كانت حركاتها من المشرق إلى المغرب قسرية وحركاتها من برج إلى برج ملائمة عبر عن الأولى بالنزع وعن الثانى بالنشط أو بأنفس الغزاة أو أيديهم التى تنزع القسى بإغراق السهام وينشطون بالسهم للرمى ويسبحون فى البر والبحر فيسبقون إلى حرب العدو فيدبرون أمرها أو بخيلهم التى تنزع فى أعنتها نزعا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها لأنها عراب وتخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب وتسبح فى جريها لتسبق إلى الغاية فتدبر أمر الظفر والغلبة وإسناد التدبير إليها لأنها من أسبابه هذا والذى يليق بشأن التنزيل هو الأول وقوله تعالى (يوم ترجف الراجفة) منصوب بالجواب المضمر والمراد بالراجفة الواقعة التى ترجف عندها الأجرام الساكنة أى تتحرك حركة شديدة وتتزلزل زلزلة عظيمة كالأرض والجبال وهى النفخة الأولى وقيل الراجفة الأرض والجبال لقوله تعالى يوم ترجف الأرض والجبال وقوله تعالى (تتبعها الرادفة) أى الواقعة التى تردف الأولى وهى النفخة الثانية تابعة لها لا قبل ذلك فإنه عبارة عن الزمان الممتد الذى يقع فيه النفختان وبينهما أربعون سنة واعتبار امتداده مع أن البعث لا يكون إلا عند النفخة الثانية لتهويل اليوم ببيان كونه موقعا

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ ٧٩ النازعات

أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ ٧٩ النازعات

يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ ٧٩ النازعات

لداهيتين عظيمتين لا يبقى عند وقوع الأولى حى إلا مات ولا عند وقوع الثانية ميت إلا بعث وقام ووجه إضافته إلى الأولى ظاهر وقيل يوم ترجف منصوب باذكر فتكون الجملة استئنافاً مقرراً لمضمون الجواب المضمر كأنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذكر لهم يوم النفختين فإنه وقت بعثهم وقيل هو منصوب بما دل عليه قوله تعالى (قلوب يومئذ واجفة) أى يوم ترجف وجفت القلوب قيل ٨ قلوب مبتدأ ويومئذ متعلق بواجفة وهى صفة لقلوب مسوغة لوقوعه مبتدأ وقوله تعالى (أبصارها) ٩ أى أبصار أصحابها (خاشعة) جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبراً لقلوب وقد مر أن حق الصفة أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع حتى قالوا إن الصفات قبل العلم بها أخبار والأخبار بعد العلم بها صفات فحيث كان ثبوت الوجيف للقلوب وثبوت الخشوع لأبصار أصحابها سواء فى المعرفة والجهالة كان جعل الأول عنواناً للموضوع مسلم الثبوت مفروغا عنه وجعل الثانى مخبراً به مقصود الإفادة تحكما بحتا على أن الوجيف الذى هو عبارة عن شدة اضطراب القلب وقلقه من الخوف والوجل أشد من خشوع البصر وأهول فجعل أهون الشرين عمدة وأشدهما فضلة مما لا عهد له فى الكلام وأيضا فتخصيص الخشوع بقلوب موصوفة بصفة معينة غير مشعرة بالعموم والشمول تهوين للخطب فى موقع التهويل فالوجه أن يقال تنكير قلوب يقوم مقام الوصف المختص سواء حمل على التنويع كما قيل وإن لم يذكر النوع المقابل فإن المعنى منسحب عليه أو على التكثير كما فى شر أهر ذا ناب فإن التفخيم كما يكون بالكيفية يكون بالكمية أيضا كأنه قيل قلوب كثيرة يوم إذ يقع النفختان واجفة أى شديدة الاضطراب قال ابن عباس رضى الله عنهما خائفة وجلة وقال السدى زائلة عن أماكنها كما فى قوله تعالى إذ القلوب لدى الحناجر وقوله تعالى (يقولون أئنا لمردودن فى الحافرة) حكاية لما يقوله المنكرون ١٠ للبعث المكذبون بالآيات الناطقة به إثر بيان وقوعه بطريق التوكيد القسمى وذكر مقدماته الهائلة وما يعرض عند وقوعها للقلوب والأبصار أى يقولون إذا قيل لهم إنكم تبعثون منكرين له متعجبين منه أئنا لمردودون بعد موتنا فى الحافرة أى فى الحالة الأولى يعنون الحياة من قولهم رجع فلان فى حافرته أى فى طريقته التى جاء فيها فحفرها أى أثر فيها بمشيه وتسميتها حافرة مع أنها محفورة كقوله تعالى فى عيشة راضية أى منسوبة إلى الحفر والرضا أو كقولهم نهاره صائم على تشبيه القابل بالفاعل وقرىء فى الحفرة وهى بمعنى المحفورة .

أءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ — ٧٩ النازعات

قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ — ٧٩ النازعات

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ — ٧٩ النازعات

فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ — ٧٩ النازعات

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ — ٧٩ النازعات

---

١١ وقوله تعالى (أئذا كنا عظاماً نخرة) تأكيد لإنكار الرد ونفيه بنسبته إلى حالة منافية له والعامل فى إذا مضمر يدل عليه مردودون أى أئذا كنا عظاماً بالية نرد ونبعث مع كونها أبعد شىء من الحياة وقرىء إذا كنا على الخبر أو إسقاط حرف الإنكار وناخرة من نخر العظم فهو نخر وناخر وهو

١٢ البالى الأجوف الذى يمر به الريح فيسمع له نخير (قالوا) حكاية لكفر آخر هم متفرع على كفرهم السابق ولعل توسيط قالوا بينهما للإيذان بأن صدور هذا الكفر عنهم ليس بطريق الاطراد والاستمرار مثل كفرهم السابق المستمر صدوره عنهم فى كافة أوقاتهم حسبما ينبىء عنه حكايته بصيغة المضارع أى قالوا بطريق الاستهزاء مشيرين إلى ما أنكروه من الردة فى الحافرة مشعرين بغاية بعدها من الوقوع

* (تلك إذاً كرة خاسرة) أى ذات خسران أو خاسرة أصحابها أى إن صحت فنحن إذن خاسرون لتكذيبنا

١٣ بها وقوله تعالى (فإنما هى زجرة واحدة) تعليل لمقدر يقتضيه إنكارهم لإحياء العظام النخرة التى عبروا عنها بالكرة فإن مداره لما كان استصعابهم إياها رد عليهم ذلك فقيل لا تستصعبوها فإنما هى صيحة واحدة أى حاصلة بصيحة واحد وهى النفخة الثانية عبر عنها بها تنبيهاً على كمال اتصالها بها كأنها عينها

١٤ وقيل هى راجع إلى الرادفة فقوله تعالى (فإذا هم بالساهرة) حينئذ بيان لترتب الكرة على الزجرة مفاجأة أى فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً فى جوفها وعلى الأول بيان لحضورهم الموقف عقيب الكرة التى عبر عنها بالزجرة والساهرة الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك لأن السراب يجرى فيها من قولهم عين ساهرة جارية الماء وفى ضدها نائمة وقيل لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة وقيل اسم لجهنم وقال الراغب هى وجه الأرض وقيل هى أرض القيامة وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الساهرة أرض من فضة لم يعص الله تعالى عليها قط خلقها حينئذ وقيل هى أرض يجددها الله عز وجل يوم القيامة وقيل هى اسم الأرض السابعة يأتى بها الله تعالى فيحاسب الخلائق عليها وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض وقال الثورى الساهرة أرض الشام وقال وهب بن منبه

١٥ جبل بيت المقدس وقيل الساهرة بمعنى الصحراء على شفير جهنم وقوله تعالى (هل أتاك حديث موسى) كلام مستأنف وارد لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم من تكذيب قومه بأنه يصيبهم مثل ما أصاب

إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٧٩ النازعات

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ٧٩ النازعات

فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ٧٩ النازعات

وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ٧٩ النازعات

فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ٧٩ النازعات

من كان أقوى منهم وأعظم ومعنى هل أتاك إن اعتبر هذا أول ما أتاه عليه الصلاة والسلام من حديثه عليه السلام ترغيب له عليه الصلاة والسلام فى استماع حديثه كأنه قيل هل أتاك حديثه أنا أخبرك به وإن اعتبر إتيانه قبل هذا وهو المتبادر من الإيجاز فى الاقتصاص حمله عليه الصلاة والسلام على أن يقر بأمر يعرفه قبل ذلك كأنه قيل أليس قد أتاك حديثه وقوله تعالى (إذ ناداه ربه بالواد المقدس) ١٦ ظرف للحديث لا للإتيان لاختلاف وقتيهما (طوى) بضم الطاء غير منون وقرىء منونا وقرىء * بالكسر منونا وغير منون فمن نونه أوله بالمكان دون البقعة وقيل هو كثنى مصدر لنادى أو المقدس أى ناداه ندائين أو المقدس مرة بعد أخرى (اذهب إلى فرعون) على إرادة القول وقيل هو تفسير ١٧ للنداء أى ناداه اذهب وقيل هو على حذف أن المفسرة ويدل عليه قراءة عبد الله أن أذهب لأن فى النداء معنى القول (إنه طغى) تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به (فقل) بعد ما أتيته (هل لك) ١٨ رغبة وتوجه (إلى أن تزكى) بحذف إحدى التاءين من تتزكى أى تتطهر من دنس الكفر والطغيان * وقرىء تزكى بالتشديد (وأهديك إلى ربك) وأرشدك إلى معرفته عز وجل فتعرفه (فتخشى) إذ ١٩ الخشية لا تكون إلا بعد معرفته تعالى قال عز وجل إنما يخشى الله من عباده العلماء وجعل الخشية غاية للهداية لأنها ملاك الأمر من خشى الله تعالى أتى منه كل خير ومن أمن اجترأ على كل شر أمر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبه بالاستفهام الذى معناه العرض ليستدعيه بالتلطف فى القول ويستنزله بالمداراة من عتوه وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى والفاء فى قوله تعالى (فأراه الآية الكبرى) فصيحة تفصح عن جمل قد طويت تعويلا على تفصيلها فى السور الأخرى فإنه ٢٠ عليه الصلاة والسلام ما أراه إياها عيب هذا الأمر بل بعد ماجرى بينه وبين الله تعالى ماجرى من الاستدعاء والإجابة وغيرهما من المراجعات وبعد ماجرى بينه وبين فرعون ماجرى من المحاورات إلى أن قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين والإراءة إما بمعنى التبصير أو التعريف فإن اللعين حين أبصرها عرفها وادعاء سحريتها إنما كان إراءة منه وإظهاراً للتجلد ونسبتها إليه عليه الصلاة والسلام بالنظر إلى الظاهر كما أن نسبتها إلى نون العظمة فى قوله تعالى ولقد أريناه آياتنا بالنظر

فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ٧٩ النازعات

ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ ٧٩ النازعات

فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ ٧٩ النازعات

فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ٧٩ النازعات

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ٧٩ النازعات

إلى الحقيقة والمراد بالآية الكبرى قلب العصا حية وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما فإنها كانت المقدمة والأصل والأخرى كالتبع لها أوهما جميعاً وهو قول مجاهد فإنهما كالآية الواحدة وقد عبر عنهما بصيغة الجمع حيث قال اذهب أنت وأخوك بآياتى باعتبار مافى تضاعيفهما من بدائع الأمور التى كل منها آية بينة لقوم يعقلون كما فى سورة طه ولامساغ لحملها على مجموع معجزاته فإن ماعدا هاتين الآيتين من الآيات التسع إنما ظهرت على يده عليه الصلاة والسلام بعد ماغلب السحرة على مهل فى نحو من عشرين سنة كما مر فى سورة الأعراف ولاريب فى أن هذا مطلع القصة وأمر السحرة مترقب

٢١ بعد (فكذب) بموسى عليه السلام وسمى معجزاته سحراً (وعصى) الله عز وجل بالتمرد بعد ما علم صحة الأمر ووجوب الطاعة أشد عصيان وأقبحه حيث اجترأ على إنكار وجود رب العالمين رأساً وكان اللعين وقومه مأمورين بعبادته عز وجل وترك العظيمة التى كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية

٢٢ لا بإرسال بنى إسرائيل من الأسر والقسر فقط (ثم أدبر) أى تولى عن الطاعة أو انصرف عن المجلس (يسعى) أى يجتهد فى معارضة الآية أو أريد ثم أقبل أى أنشأ يسعى فوضع موضعه أدبر تحاشياً عن وصفه بالإقبال وقيل أدبر هارباً من الثعبان فإنه روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ألقى العصا انقلبت ثعباناً أشعر فاغراً فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر فتوجه نحو فرعون فهرب وأحدث وانهزم الناس مزدحمون فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً من قومه وقيل إنها حين انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون وجعلت تقول ياموسى مرنى بما شئت ويقول فرعون أنشدك بالذى أرسلك إلا أخذته فأخذه فعاد عصا ويأباه أن

٢٣ ذلك كان قبل الإصرار على التكذيب والعصيان والتصدى للمعارضة كما يعرب عنه قوله تعالى (فحشر) أى فجمع السحرة لقوله فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين وقوله تعالى فتولى فرعون فجمع كيده أى مايكاد به من السحرة وآلاتهم وقيل جنوده ويجوز أن يراد جميع الناس (فنادى) فى المجمع بنفسه

٢٤،٢٥ أو بواسطة المنادى (فقال أنا ربكم الأعلى) قيل قام فيهم خطيبا فقال تلك العظيمة (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) النكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم وهو التعذيب الذى ينكل من

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ٧٩ النازعات

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ ٧٩ النازعات

رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ ٧٩ النازعات

وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ ٧٩ النازعات

رآه أو سمعه ويمنعه من تعاطى مايفضى إليه ومحله النصب على أنه مصدر مؤكد كوعد الله وصبغة الله كأنه قيل نكل الله به نكال الآخرة والأولى وهو الإحراق فى الآخرة والإغراق فى الدنيا وقيل مصدر لأخذ أى أخذه الله أخذ نكال الآخرة الخ وقيل مفعول له أى أخذه لأجل نكال الخ وقيل نصب على نزع الخافض أى أخذه بنكال الآخرة والأولى وإضافته إلى الدارين باعتبار وقوع نفس الأخذ فيهما لا باعتبار أن ما فيه من معنى المنع يكون فيهما فإن ذلك لا يتصور فى الآخرة بل فى الدنيا فإن العقوبة الأخروية تنكل من سمعها وتمنعه من تعاطى ما يؤدى إليها لامحالة وقيل المراد بالآخرة والأولى قوله أنا ربكم الأعلى وقوله ماعلمت لكم من إله غيرى قيل كان بين الكلمتين أربعون سنة فالإضافة إضافة المسبب إلى السبب (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل وما فعل به ٢٦ (لعبرة) عظيمة (لمن يخشى) أى لمن من شأنه أن يخشى وهو من من شأنه المعرفة وقوله تعالى (أأنتم ٢٧ أشد خلقاً) خطاب لأهل مكة المنكرين للبعث بناء على صعوبته فى زعمهم بطريق التوبيخ والتبكيت بعد ما بين كمال سهولته بالنسبة إلى قدرة الله تعالى بقوله تعالى فإنما هى زجرة واحدة أى أخلقكم بعد موتكم أشد أى أشق وأصعب فى تقديركم (أم السماء) أى أم خلق السماء على عظمها وانطوائها على * تعاجيب البدائع التى تحار العقول عن ملاحظة أدناها كقوله تعالى لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس وقوله تعالى أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم وقوله تعالى (بناها) الخ بيان وتفصيل لكيفية خلقها المستفاد من قوله أم السماء وفى عدم ذكر الفاعل فيه وفيما * عطف عليه من الأفعال من التنبيه على تعينه وتفخيم شأنه عز وجل ما لا يخفى وقوله تعالى (رفع سمكها) ٢٨ بيان للبناء أى جعل مقدار ارتفاعها من الأرض وذهابها إلى سمت العلو مديداً رفيعاً مسيرة خمسمائة عام (فسواها) فعدلها مستوية ملساء ليس فيها تفاوت ولا فطور أو فتممها بما علم أنها تتم به من الكواكب * والتداوير وغيرها مما لا يعلمه إلا الخلاق العليم من قولهم سوى أمر فلان إذا صلحه (وأغطش ليلها) ٢٩ أى جعله مظلماً يقال غطش الليل وأغطشه الله تعالى كما يقال ظلم وأظلمه وقد مر هذا فى قوله تعالى وإذا أظلم عليهم قاموا ويقال أيضاً أغطش الليل كما يقال أظلم (وأخرج ضحاها) أى أبرز نهارها عبر * عنه بالضحى لأنه أشرف أوقاته وأطيبها فكان أحق بالذكر فى مقام الامتنان وهو السر فى تأخير ذكره عن ذكر الليل وفى التعبير عن إحداثه بالإخراج فإن إضافة النور بعد الظلمة أتم فى الإنعام

وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ٧٩ النازعات

أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ ٧٩ النازعات

وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ٧٩ النازعات

وأكمل فى الإحسان وإضافة الليل والضحى إلى السماء لدوران حدوثهما على حركتها ويجوز أن تكون إضافة الضحى إليها بواسطة الشمس أى أبرز ضوء شمسها والتعبير عنه بالضحى لأنه وقت قيام
٣٠ سلطانها وكال إشراقها (والأرض بعدذلك دحاها) أى بسطها ومهدها لسكنى أهلها وتقلبهم فى أقطارها
٣١ وانتصاب الأرض بمضمر يفسره دحاها (أخرج منها ماءها) بأن فجر منها عيوناً وأجرى أنهاراً
* (ومرعاها) أى رعيها وهو فى الأصل موضع الرعى وقيل هو مصدر ميمى بمعنى مفعول وتجريد الجملة عن العاطف إما لأنها بيان وتفسير لدحاها وتكملة له فإن السكنى لاتتأتى بمجرد البسط والتمهيد بل لابد من تسوية أمر المعاش من المآكل والمشرب حتما وإما لأنها حال من فاعله بإضمار قد عند الجمهور أو
٣٢ بدونه عند الكوفيين والأخفش كما فى قوله تعالى أو جاءوكم حصرت صدورهم (والجبال) منصوب
* بمضمر يفسره (أرساها) أى أثبتها وأثبت بها الأرض أن تميد بأهلها وهذا تحقيق للحق وتنبيه على أن الرسو المنسوب إليها فى مواضع كثيرة من التنزيل بالتعبير عنها بالرواسى ليس من مقتضيات ذواتها بل هو بإرسائه عز وجل ولولاه لما ثبتت فى أنفسها فضلا عن إثباتها للأرض وقرىء والأرض والجبال بالرفع على الابتداء ولعل تقديم إخراج الماء والمرعى ذكرا مع تقدم الإرساء عليه وجوداً وشدة تعلقه بالدحو لإبراز كمال الاعتناء بأمر المآكل والمشرب مع مافيه من دفع توهم رجوع ضميرى الماء والمرعى إلى الجبال وهذا كما ترى يدل بظاهره على تأخر دحو الأرض عن خلق السماء وما فيها كما يروى عن الحسن من أنه تعالى خلق الأرض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليه دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر فى موضعها وبسط منها الأرض وذلك قوله تعالى كانتا رتقاً ففتقناهما الآية وقد مر فى سورة حم السجدة أن قوله تعالى قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ـ إلى قوله تعالى ـ ثم استوى إلى السماء وهى دخان الآية إن حمل مافيه من الخلق وما عطف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة لاعلى تقديرها فهو ومافى سورة البقرة من قوله تعالى هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات يدلان على تقدم خلق الأرض وما فيها على خلق السماء وما فيها وعليه إطباق أكثر أهل التفسير وقد روى أن العرش كان قبل خلق السموات والأرض على الماء ثم إنه تعالى أحدث فى الماء اضطراباً فأزبد فارتفع منه دخان فأما الزبد فبقى على وجه الماء فخلق منه اليبوسة فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها أرضين وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السموات وروى أنه تعالى خلق جرم الأرض يوم الأحد ويوم

مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾ ٧٩ النازعات

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٤﴾ ٧٩ النازعات

يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ ٧٩ النازعات

الإثنين ودحاها وخلق مافيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء وخلق السموات ومافيهن يوم الخميس ويوم الجمعة وخلق آدم عليه السلام فى آخر ساعة منه وهى الساعة التى تقوم فيها القيامة فالأقرب كما قيل تأويل هذه الآية بأن يجعل ذلك إشارة إلى ذكر ماذكر من بناء السماء ورفع سمكها وتسويتها وغيرها لا إلى أنفسها ويحمل بعدية فى الذكر كما هو المعهود فى ألسنة العرب والعجم لا فى الوجود لما عرفت من أن انتصاب الأرض بمضمر مقدم قد حذف على شريطة التفسير لا بما ذكر بعده ليفيد القصر وتتعين البعدية فى الوجود وفائدة تأخيره فى الذكر إما التنبيه على أنه قاصر فى الدلالة على القدرة القاهرة بالنسبة إلى أحوال السماء وإما الإشعار بأنه أدخل فى الإلزام لما أن المنافع المنوطة بما فى الأرض أكثر وتعلق مصالح الناس بذلك أظهر وإحاطتهم بتفاصيل أحواله أكمل وليس ماروى عن الحسن نصاً فى تأخر دحو الأرض عن خلق السماء فإن بسط الأرض معطوف على إصعاد الدخان وخلق السماء بالواو هى بمعزل من الدلالة على الترتيب هذا على تقدير حمل ماذكر فى آيات سورة السجدة من الخلق وما عطف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة وأما إذا حملت على تقديرها فلا دلالة فيها إلا على تقدم تقدير الأرض وما فيها على إيجاد السماء كما لادلالة على الترتيب أصلا إذا حملت كلمة ثم فيها وفيما فى سورة البقرة على التراخى فى الرتبة وقد سلف تفصيل الكلام فى السورة المذكورة وقوله تعالى (متاعا لكم ولأنعامكم) إما مفعول له أى فعل ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم لأن فائدة ماذكر من البسط والتمهيد وإخراج الماء والمرعى واصلة إليهم وإلى أنعامهم فإن المراد المرعى مايعم ما يأكله الإنسان وغيره بناء على استعارة الرعى لتناول المأكول على الإطلاق كاستعارة المرسن للأنف وقيل مصدر مؤكد لفعله المضمر أى متعكم بذلك متاعا أو مصدر من غير لفظه فإن قوله تعالى أخرج منها ماءها ومرعاها فى معنى متع بذلك وقوله تعالى (فإذا جاءت الطامة الكبرى) أى الداهية العظمى التى تطم على سائر الطامات أى تعلوها وتغلبها وهى القيامة أو النفخة الثانية وقيل هى الساعة التى يساق الخلائق إلى محشرهم وقيل التى يساق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار شروع فى بيان أحوال معادهم إثر بيان أحوال معاشهم بقوله تعالى متاعا لكم الخ والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ماقبلها عما قليل كما ينبى منه لفظ المتاع (يوم يتذكر الإنسان ماسعى) قيل هو بدل من إذا جاءت والأظهر أنه منصوب بأعنى كما قيل تفسيراً للطامة الكبرى فإن الإبدال منها بالظرف المحض مما يوهن تعلقها بالجواب ويجوز أن يكون بدلا من الطامة الكبرى مفتوحا لإضافته إلى الفعل على رأى الكوفيين أى يتذكر فيه كما

(هامش: ٣٣، ٣٤، ٣٥)

وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ ٧٩ النازعات

فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ ٧٩ النازعات

وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ ٧٩ النازعات

فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ٧٩ النازعات

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ٧٩ النازعات

فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ٧٩ النازعات

أحد ماعمله من خير أو شر بأن يشاهده مدوناً فى صحيفة أعماله وقد كان نسيه من فرط الغفلة وطول
٣٦ الأمد كقوله تعالى أحصاه الله ونسوه ويجوز أن تكون ما مصدرية (وبرزت الجحيم) عطف على
* جاءت أى أظهرت إظهاراً بيناً لايخفى على أحد (لمن يرى) كائناً من كان يروى أنه يكشف عنها فتتلظى
فيراها كل ذى بصر وقرىء وبرزت بالتخفيف ولمن رأى ولمن ترى على فيه ضمير الجحيم كما فى قوله
تعالى إذا رأتهم من مكان بعيد وعلى أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى لم تراه من الكفار
٣٧ وقوله تعالى (فأما من طغى) الخ جواب فإذا جاءت على طريقة قوله تعالى فإما يأتينكم منى هدى الآية
وقيل هو تفصيل للجواب المحذوف تقديره انقسم الراؤون قسمين فأما من الخ والذى تستدعيه فخامة
التنزيل ويقتضيه مقام التهويل أن الجواب المحذوف كان من عظائم الشؤن مالم تشاهده العيون كما مر
٣٨ فى قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل أى فأما من عتا وتمرد عن الطاعة وجاوز الحد فى العصيان (آثر
الحياة الدنيا) الفانية التى هى على جناح الفوات فانهمك فيما متع به فيها ولم يستعد للحياة الأخروية
٣٩ الأبدية بالإيمان والطاعة (فإن الجحيم) التى ذكر شأنها (هى المأوى) أى هى مأواه واللام سادة مسد
الإضافة للعلم بأن صاحب المأوى هو الطاغى كما فى قولك غض الطرف ودخول اللام فى المأوى والطرف
للتعريف لأنهما معروفان وهى إما ضمير فصل أو مبتدأ قيل نزلت الآية فى النضر وأبيه الحرث المشهورين
٤٠ بالغلو فى الكفر والطغيان (وأما من خاف مقام ربه) أى مقامه بين يدى مالك أمره يوم الطامة الكبرى
* يوم يتذكر الإنسان ماسعى (ونهى النفس عن الهوى) عن الميل إليه بحكم الجبلة البشرية ولم يعتد
٤١ بمتاع الحياة الدنيا وزهرتها ولم يغتر بزخارفها وزينتها علماً منه بوخامة عاقبتها (فإن الجنة هى المأوى)
له لاغيرها وقيل نزلت الآيتان فى أبى عزيز بن عمير ومصعب بن عمير وقد قتل مصعب أخاه أبا عزيز
يوم أحد ووقى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استشهد رضى الله عنه هذا وقد قيل جواب إذا
مايدل عليه قوله تعالى يوم يتذكر الخ أى فإذا جاءت الطامة الكبرى يتذكر الإنسان ماسعى على طريقة

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ ٧٩ النازعات

فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ ٧٩ النازعات

إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ ٧٩ النازعات

إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ٧٩ النازعات

قوله تعالى علمت نفس ماأحضرت وقوله تعالى علمت نفس ماقدمت وأخرت فيكون قوله تعالى وبرزت الجحيم عطفاً عليه وصيغة الماضى للدلالة على التحقق أو حالا من الإنسان بإضمار قد أو بدونه على اختلاف الرأيين ولمن يرى مغن عن العائد وقوله تعالى فأما من طغى الخ تفصيلا لحالى الإنسان الذى يتذكر ماسعى وتقسيما له بحسب أعماله إلى القسمين المذكورين (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) ٤٢ متى إرساؤها أى إقامتها يريدون متى يقيمها الله تعالى ويثبتها ويكونها وقيل أيان منتهاها ومستقرها كما أن مرسى السفينة حيث تنتهى إليه وتستقر فيه وقوله تعالى (فيم أنت من ذكراها) إنكار ورد لسؤال ٤٣ المشركين عنها أى فى أى شىء أنت من تذكر لهم وقتها وتعلمهم به حتى يسألونك بيانها كقوله تعالى يسألونك كأنك حفى عنها أى ما أنت من ذكرها لهم وتبيين وقتها فى شىء لأن ذلك فرع علمك به وأنى لك ذلك وهو مما استأثر بعلمه علام الغيوب ومن قال بصدد التعليل فإن ذكرها لايزيدهم إلا غياً فقد نأى عن الحق وقيل فيم إنكار لسؤالهم وما بعده من الاستئناف تعليل للإنكار وبيان لبطلان السؤال أى فيم هذا السؤال ثم ابتدىء فقيل أنت من ذكراه أى إرسالك وأنت خاتم الأنبياء المبعوث فى نسيم الساعة علامة من علاماتها ودليل يدلهم على العلم بوقوعها عن قريب فحسبهم هذه المرتبة من العلم فمعنى قوله تعالى (إلى ربك منتهاها) على هذا الوجه إليه تعالى يرجع منتهى علمها أى علمها بكنهها وتفاصيل ٤٤ أمرها ووقت وقوعها لا إلى أحد غيره وإنما وظيفتهم أن يعلموا باقترابها ومشارفتها وقد حصل لهم ذلك بمبعثك فما معنى سؤالهم عنها بعد ذلك وأما على الوجه الأول فمعناه إليه تعالى انتهاء علمها ليس لأحد منه شىء ما كائناً من كان فلأى شىء يسألونك عنها وقوله تعالى (إنما أنت منذر من يخشاها) على الوجه ٤٥ الأول تقرير لما قبله من قوله تعالى فيم أنت من ذكراها وتحقيق لما هو المراد منه وبيان لوظيفته عليه الصلاة والسلام فى ذلك الشأن فإن إنكار كونه عليه الصلاة والسلام فى شىء من ذكراها مما يوهم بظاهره أن ليس له عليه الصلاة والسلام أن يذكرها بوجه من الوجوه فأزيح ذلك ببيان أن المنفى عنه عليه الصلاة والسلام ذكرها لهم بتعيين وقتها حسبما كانوا يسألونه عليه الصلاة والسلام عنها فالمعنى إنما أنت منذر من يخشاها وظيفتك الامتثال بما أمرت به من بيان اقترابها وتفصيل مافيها من فنون الأهوال كما تحيط به خبراً لاتعيين وقتها الذى لم يفوض إليك فما لهم يسألونك عما ليس من وظائفك بيانه وعلى

الوجه الثانى هو تقرير لقوله تعالى أنت من ذكراها ببيان أن إرساله عليه الصلاة والسلام وهو خاتم الأنبياء عليهم السلام منذر بمجىء الساعة كما ينطق به قوله عليه الصلاة والسلام بعثت أنا والساعة كهاتين إن كادت لتسبقنى وقرىء منذر بالتنوين وهو الأصل والإضافة تخفيف صالح للحال والاستقبال فإذا أريد الماضى تعينت الإضافة وتخصيص الإنذار بمن يخشى مع عموم الدعوة لأنه المنتفع به وقوله تعالى ٤٦ (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) إما تقرير وتأكيد لما ينبىء عنه الإنذار من سرعة مجىء المنذر به لاسيما على الوجه الثانى أى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الإنذار بها إلا عشية يوم واحد أو ضحاه فلما ترك اليوم أضيف ضحاه إلى عشيته وإما رد لما أدمجوه فى سؤالهم فإنهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء مستعجلين بها وإن كان على نهج الاستهزاء بها ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين فالمعنى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الوعيد بها إلا عشية أو ضحاها واعتبار كون اللبث فى الدنيا أو فى القبور لا يقتضيه المقام وإنما الذى يقتضيه اعتبار كونه بعد الإنذار أو بعد الوعيد تحقيقاً للإنذار ورداً لاستبطائهم والجملة على الأول حال من الموصول فإنه على تقديرى الإضافة وعدمها مفعول لمنذر كما أن قوله تعالى كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار حال من ضمير المفعول فى يحشرهم أى يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث فى الدنيا إلا ساعة خلا أن الشبه هناك فى الأحوال الظاهرة من الزى والهيئة وفيما نحن فيه فى الاعتقاد كأنه قيل تنذرهم مشبهين يوم يرونها فى الاعتقاد بمن لم يلبث بعد الإنذار بها إلا تلك المدة اليسيرة وعلى الثانى مستأنفة لا محل لها من الإعراب. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النازعات كان ممن حبسه الله عز وجل فى القبر والقيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة مكتوبة والله أعلم.



وتسمى سورة الساهرة والطامة وهي مكية بالاتفاق وعدد آيها ست وأربعون في الكوفي وخمس وأربعون في غيره. وعن ابن عباس أنها نزلت عقب سورة عم وأولها يشبه أن يكون قسماً لتحقيق ما في آخر عم أو ما تضمنته كلها وفي البحر لما ذكر سبحانه في آخر ما قبلها الإنذار بالعذاب يوم القيامة أقسم عز وجل في هذه على البعث ذلك اليوم فقال جل شأنه:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * والنَّازِعَاتِ غَرْقاً والنَّاشِطَاتِ نَشْطاً والسَّابِحَاتِ سَبْحاً فالسَّابِقَاتِ سَبْقاً فالمُدَبِّرَاتِ أمْراً﴾ إقسام من الله تعالى بطوائف من ملائكة الموت عليهم السلام الذين ينزعون الأرواح من الأجساد على الإطلاق كما في رواية عن ابن عباس ومجاهد، أو أرواح الكفرة على ما أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر عن علي كرم الله تعالى وجهه وجويبر في تفسيره عن الحبر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود وعبد بن حميد عن قتادة. ورُوي عن سعيد بن جبير ومسروق وينشطونها أي يخرجونها من الأجساد من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها ويسبحون في إخراجها سبح الذي يخرج من البحر ما يخرج فيسبقون ويسرعون بأرواح الكفرة إلى النار وبأرواح المؤمنين إلى الجنة فيدبرون أمر عقابها وثوابها بأن يهيئوها لإدراك ما أعد لها من الآلام واللذات. ومال بعضهم إلى تخصيص النزع بأرواح الكفار والنشط والسبح بأرواح المؤمنين لأن النزع جذب

بشدة وقد أردف بقوله تعالى ﴿غرقا﴾ وهو مصدر مؤكد بحذف الزوائد أي إغراقاً في النزع من أقاصي الأجساد. وقيل: هو نوع، والنزع جنس أي في هذا المحل وذلك أنسب بالكفار. وقال ابن مسعود: تنزع الملائكة روح الكافر من جسده من تحت كل شعرة ومن تحت الأظافر وأصول القدمين ثم تغرقها في جسده ثم تنزعها حتى إذا كادت تخرج يردها في جسده وهكذا مراراً فهذا عملها في الكفار. والنشط الإخراج برفق وسهولة وهو أنسب بالمؤمنين وكذا السبح ظاهر في التحرك برفق ولطافة. قال بعض السلف: إن الملائكة يسلون أرواح المؤمنين سلاً رقيقاً ثم يتركونها حتى تستريح رويداً ثم يستخرجونها برفق ولطف كالذي يسبح في الماء فإنه يتحرك برفق لئلا يغرق فهم يرفقون في ذلك الاستخراج لئلا يصل إلى المؤمن ألم وشدة وفي التاج إن النشط حل العقدة برفق ويقال كما في البحر: انشطت العقال ونشطته إذا مددت أنشوطته فانحلت، والأنشوطة عقدة يسهل انحلالها إذا جذبت كعقدة التكة فإذا جعلت ﴿الناشطات﴾ من النشط بهذا المعنى كان أوفق للإشارة إلى الرفق والعطف مع اتحاد الكل لتنزيل التغاير العنواني منزلة التغاير الذاتي كما مر غير مرة للإشعار بأن كل واحد من الأوصاف المعدودة من معظمات الأمور حقيق بأن يكون على حياله مناطاً لاستحقاق موصوفة للإجلال والإعظام بالإقسام به من غير انضمام الأوصاف الأخر إليه. ولو جعلت ﴿النازعات﴾ ملائكة العذاب و ﴿الناشطات﴾ ملائكة الرحمة كان العطف للتغاير الذاتي على ما هو الأصل والفاء في الأخيرين للدلالة على ترتبهما على ما قبلهما بغير مهلة. وانتصاب ﴿نشطا﴾ و ﴿سبحا﴾ و ﴿سبقا﴾ على المصدرية كانتصاب ﴿غرقا﴾ وأما انتصاب ﴿أمرا﴾ فعلى المفعولية للمدبرات لا على نزع الخافض أي بأمر منه تعالى كما قيل. وزعم أنه الأولى وتنكيره للتهويل والتفخيم. وجوز أن يكون ﴿غرقا﴾ مصدراً مؤولاً بالصفة المشبهة ونصبه على المفعولية أيضاً للنازعات أو صفة للمفعول به لها أي نفوساً غرقة في الأجساد. وحمل بعضهم غرقها فيها بشدة تعلقها بها وغلبة صفاتها عليها وكان ذلك مبني على تجرد الأرواح كما ذهب إليه الفلاسفة وبعض أجلة المسلمين. هذا ولم نقف على نص في أن الملائكة حال قبض الأرواح وإخراجها هل يدخلون في الأجساد أم لا. وظاهر تفسير ﴿الناشطات﴾ أنهم حالة النزع خارج الجسد كالواقف و ﴿السابحات﴾ دخولهم فيه لإخراجها على ما قيل وأنت تعلم أن السبح ليس على حقيقته ولا مانع من أن يراد به مجرد الاتصال ونحوه مما لا توقف له على الدخول. وجوز أن يكون المراد بالسابحات وما بعدها طوائف من الملائكة يسبحون في مضيهم فيسبقون فيه إلى ما أمروا به من الأمور الدنيوية والأخروية فيدبرون أمره من كيفيته وما لا بد منه فيه ويعم ذلك ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، والعطف عليه لتغاير الموصوفات كالصفات، وأيّاً ما كان فجواب القسم محذوف يدل عليه ما بعد من أحوال القيامة ويلوح إليه الأقسام المذكورة والتقدير و ﴿النازعات﴾ إلخ لتبعثن وإليه ذهب الفراء وجماعة. وقيل: إقسام بالنجوم السيارة التي تنزع أي تسير من نَزَعَ الفرس إذا جرى من المشرق إلى المغرب غرقاً في النزع وجدّاً في السير بأن تقطع الفلك على ما يبدو للناس حتى تنحط في أقصى الغرب وتنشط من برج إلى برج أي تخرج من نشط الثور إذا خرج من مكان إلى مكان آخر ومنه قول هميان بن قحافة:

أرى همومي تنشط المناشطا ... الشأم بي طوراً وطوراً واسطا

وتسبح في الفلك فيسبق بعضها في السير لكونه أسرع حركة فتدبر أمراً نيط بها كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وظهور مواقيت العبادات والمعاملات المؤجلة ولما كانت حركاتها من المشرق إلى المغرب

سريعة قسرية وتابعة لحركة الفلك الأعظم ضرورة وحركاتها من برج إلى برج بإرادتها من غير قسر لها وهي غير سريعة أطلق على الأولى النزع لأنه جذب بشدة، وعلى الثانية النشط لأنه برفق ورُوِي حمل ﴿**النازعات**﴾ على النجوم عن الحسن وقتادة والأخفش وابن كيسان وأبي عبيدة وحمل الناشطات عليها عن ابن عباس والثلاثة الأول وحمل ﴿**السابحات**﴾ عليها عن الأولين وحملها أبو روق على الليل والنهار والشمس والقمر منها والمدبرات عليها من معاذ وإضافة التدبير إليها مجاز وقيل: إقسام بالنفوس الفاضلة حالة المفارقة لا بد أنها بالموت فإنها تنزع عن الأبدان غرقاً أي نزعاً شديداً من أغرق النازع في القوس إذا بلغ غاية المدى حتى ينتهي إلى النصل لعسر مفارقتها إياها حيث ألفنه وكان مطية لها لاكتساب الخير ومظنة لازدياده فتنشط شوقاً إلى عالم الملكوت وتسبح به فتسبق به إلى حظائر القدس فتصير لشرفها وقوتها من المدبرات أي ملحقة بالملائكة أو تصلح هي لأن تكون مدبرة كما قال الإمام إنها بعد المفارقة قد تظهر لها آثار وأحوال في هذا العالم فقد يرى المرء شيخه بعد موته فيرشده لما يهمه. وقد نقل على جالينوس أنه مرض مرضاً عجز عن علاجه الحكماء فوصف له في منامه علاجه ففعله فأفاق وقد ذكره الغزالي ولذا قيل: وليس بحديث كما توهم «إذا تحيرتم في الأمور فاستعينوا من أصحاب القبور» أي أصحاب النفوس الفاضلة المتوفين ولا شك في أنه يحصل لزائرهم مدد روحاني ببركتهم، وكثيراً ما تنحل عقد الأمور بأنامل التوسل إلى الله تعالى بحرمتهم. وحمله بعضهم على الأحياء منهم الممتثلين أمر موتوا وقبل أن تموتوا. وتفسير ﴿**النازعات**﴾ بالنفوس مروي عن السدّي إلاّ أنه قال: هي جماعة النفوس تنزع بالموت إلى ربها و ﴿**الناشطات**﴾ بها عن ابن عباس أيضاً إلاّ أنه قال: هي النفوس المؤمنة تنشط عند الموت للخروج والسابقات بها عن ابن مسعود إلاّ أنه قال: هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة عليهم السلام الذين يقبضونها وقد عاينت السرور شوقاً إلى لقاء الله تعالى وقيل: إقسام بالنفوس حال سلوكها وتطهير ظاهرها وباطنها بالاجتهاد في العبادة والترقي في المعارف الإلهية فإنها تنزع عن الشهوات وتنشط إلى عالم القدس فتسبح في مراتب الارتقاء فتسبق إلى الكمالات حتى تصير من المكملات للنفوس الناقصة. وقيل: إقسام بأنفس الغزاة أو أيديهم تنزع القسي بإغراق السهام وتنشط بالسهم للرمي وتسبح في البر والبحر فتسبق إلى حرب العدو فتدبر أمرها. وإسناد السبح وما بعده إلى الأيدي عليه مجاز للملابسة وحمل ﴿**النازعات**﴾ على الغزاة مروي عن عطاء إلاّ أنه قال: هي النازعات بالقسي وغيرها، وقيل: بصفات خيلهم فإنها تنزع في أعنتها غرقاً أي تمد أعنتها مدّاً قوياً حتى تلصقها بالأعناق من غير ارتخائها فتصير كأنها انغمست فيها، وتخرج من دار الإسلام إلى دار الكفر وتسبح في جريها فتسبق إلى العدو فتدبر أمر الظفر وإسناد التدبير إليها إسناد إلى السبب. وحمل ﴿**السابحات**﴾ على الخيل مروي عن عطاء أيضاً وجماعة، ولا يخفى أن أكثر هذه الأقوال لا يليق بشأن جزالة التنزيل وليس له قوة مناسبة للمقام ومنها ما فيه قول بما عليه أهل الهيئة المتقدمون من الحركة الإرادية للكوكب وهي حركته الخاصة ونحوها مما ليس في كلام السلف ولم يتم عليه برهان. ولذا قال بخلافه المحدثون من الفلاسفة وفي حمل «المدبرات»على النجوم إيهام صحة ما يزعمه أهل الأحكام وجهلة المنجمين وهو باطل عقلاً ونقلاً كما أوضحنا ذلك فيما تقدم وكذا في حملها على النفوس الفاضلة المفارقة إيهام صحة ما يزعمه كثير من سخفة العقول من أن الأولياء يتصرفون بعد وفاتهم بنحو شفاء المريض وإنقاذ الغريق والنصر على الأعداء وغير ذلك مما يكون في عالم الكون والفساد على معنى أن الله تعالى فوض إليهم ذلك، ومنهم من خص ذلك بخمسة من الأولياء والكل جهل وإن كان الثاني أشد جهلاً. نعم لا ينبغي التوقف في أن الله تعالى قد يكرم من شاء من أوليائه بعد الموت كما يكرمه قبله بما شاء فيبرىء

سبحانه المريض وينقذ الغريق وينصر على العدو وينزل الغيث وكيت وكيت كرامة له وربما يظهر عز وجل من يشبهه صورة فتفعل ما سئل الله تعالى بحرمته مما لا إثم فيه استجابة للسائل، وربما يقع السؤال على الوجه المحظور شرعاً فيظهر سبحانه نحو ذلك مكراً بالسائل واستدراجاً له. ونقل الإمام في هذا المقام عن الغزالي أنه قال: إن الأرواح الشريفة إذا فارقت أبدانها ثم اتفق إنسان مشابه للإنسان الأول في الروح والبدن فإنه لا يبعد أن يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير فتسمى تلك المعاونة إلهاماً. ونظيره في جانب النفوس الشريرة وسوسة انتهى. ولم أر ما يشهد على صحته في الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة وقد ذكر الإمام نفسه في الباحث المشرقية استحالة تعلق أكثر من نفس ببدن واحد وكذا استحالة تعلق نفس واحدة بأكثر من بدن ولم يتعقب ما نقله هنا فكأنه فهم أن التعلق فيه غير التعلق المستحيل فلا تغفل. وقال في وجه حمل المذكورات على الملائكة أن الملائكة عليهم السلام لها صفات سلبية وصفات إضافية أما الأولى فهي أنها مبرأة عن الشهوة والغضب والأخلاق الذميمة والموت والهرم والسقم والتركيب والأعضاء والأخلاط والأركان بل هي جواهر روحانية مبرأة عن هذه الأحوال «فالنازعات غرقاً إشارة إلى كونها منزوعة عن هذه الأحوال نزعاً كلياً من جميع الوجوه على أن الصيغة للنسبة ﴿**والناشطات نشطا**﴾ إشارة إلى أن خروجها عن ذلك ليس كخروج البشر على سبيل الكلفة والمشقة بل بمقتضى الماهية، فالكلمتان إشارتان إلى تعريف أحوالهم السلبية وأما صفاتهم الإضافية فهي قسمان: الأول شرح قوتهم العاقلة وبيان حالهم في معرفة ملك الله تعالى وملكوته سبحانه والاطلاع على نور جلاله جل جلاله فوصفهم سبحانه في هذا المقام بوصفين أحدهما ﴿**والسابحات سبحا**﴾ فهم يسبحون من أول فطرتهم في بحار جلاله تعالى ثم لا منتهى لسبحهم لأنه لا منتهى لعظمة الله تعالى وعلو صمديته ونور جلاله وكبريائه فهم أبداً في تلك السباحة. وثانيهما ﴿**فالسابقات سبقا**﴾ وهو إشارة إلى تفاوت مراتبهم في درجات المعرفة وفي مراتب التجلّي والثاني شرح قوتهم العاملة وبيان حالهم فيها فوصفهم سبحانه في هذا المقام بقوله تعالى ﴿**فالمدبرات أمرا**﴾ ولما كان التدبير لا يتم إلاّ بعد العلم قدم شرح القوة العاقلة على شرح القوة العاملة انتهى. وهو على ما في بعضه من المنع ليس بشديد المناسبة للمقام. ونقل غير واحد أقوالاً غير ما ذكر في تفسير المذكورات فعن مجاهد ﴿**النازعات**﴾ المنايا تنزع النفوس. وحكى يحيى بن سلام أنها الوحش تنزع إلى الكلأ. وعن الأول تفسير ﴿**الناشطات**﴾ بالمنايا أيضاً وعن عطاء تفسيرها بالبقر الوحشية وما يجري مجراها من الحيوان الذي ينشط من قطر إلى قطر. وعنه أيضاً تفسير ﴿**السابحات**﴾ بالسفن وعن مجاهد تفسيرها بالمنايا تسبح في نفوس الحيوان وعن بعضهم تفسيرها بالسحاب وعن آخر تفسيرها بدواب البحر. وعن بعض تفسير «السابقات» بالمنايا على معنى أنها تسبق الآمال وعن غير واحد تفسير «المدبرات» بجبريل يدبر الرياح والجنود والوحي وميكال يدبر القطر والنبات وعزرائيل يدبر قبض الأرواح وإسرافيل يدبر الأمر النزل عليهم لأنه ينزل به ويدبر النفخ في الصور والأكثرون تفسيرها بالملائكة مطلقاً بل قال ابن عطية لا أحفظ خلافاً في أنها الملائكة وليس في تفسير شيء مما ذكر خبر صحيح عن رسول الله ﷺ فيما أعلم وما ذكرته أولاً هو المرجح عندي نظراً للمقام والله تعالى أعلم.

وقوله سبحانه ﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ**﴾ منصوب بالجواب المضمر والمراد بـ ﴿**الراجفة**﴾ الواقعة أو النفخة التي ترجف الأجرام عندها على أن الإسناد إليها مجازي لأنها سبب الرجف أو التجوز في الطرف بجعل سبب

الرجف راجفاً. وجوز أن تفسر الراجفة بالمحركة ويكون ذلك حقيقة لأن رجف يكون بمعنى حرك وتحرك كما في القاموس وهي النفخة الأولى. وقيل: المراد بها الأجرام الساكنة التي تشتد حركتها حينئذ كالأرض والجبال لقوله تعالى يوم ﴿ترجف الأرض والجبال﴾ [المزمل: ١٤] وتسميتها راجفة باعتبار الأول ففيه مجاز مرسل وبه يتضح فائدة الإسناد وقوله تعالى: ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي الواقفة أو النفخة التي تردف وتتبع الأولى وهي النفخة الثانية. وقيل الأجرام التابعة وهي السماء والكواكب فإنها تنشق وتنتثر بعد والجملة حال من ﴿الراجفة﴾ مصححة لوقوع اليوم ظرفاً للبعث لإفادتها امتداد الوقت وسعته حيث أفادت أن اليوم زمان الرجفة المقيدة بتبعية الرادفة لها وتبعية الشيء الآخر فرع وجود ذلك الشيء فلا بد من امتداد اليوم إلى الرادفة واعتبار امتداده مع أن البعث لا يكون عند الرادفة أعني النفخة الثانية، وبينها وبين الأولى أربعون لتهويل اليوم ببيان كونه موقعاً لداهيتين عظيمتين. وقيل: ﴿يوم ترجف﴾ منصوب باذكر فتكون الجملة استئنافاً مقرر المضمون الجواب المضمر كأنه قيل لرسول الله ﷺ اذكر لهم يوم النفختين فإنه وقت بعثهم وقيل هو منصوب بما دل عليه قوله تعالى ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي يوم ترجف وجفت القلوب أي اضطربت، يقال: وجف القلب وجيفاً اضطرب من شدة الفزع وكذلك وجب وجيباً. ورُوِي عن ابن عباس أن ﴿واجفة﴾ بمعنى خائفة بلغة همدان. وعن السدّي زائلة عن مكانها ولم يجعل منصوباً بواجفة لأنه نصب ظرفه أعني ﴿يومئذ﴾ والتأسيس أولى من التأكيد فلا يحمل عليه كيف، وحذف المضاف وإبدال التنوين مما يأباه أيضاً ورفع ﴿قلوب﴾ على الابتداء و ﴿يومئذ﴾ متعلق بـ ﴿واجفة﴾ وهي الخبر على ما قيل وهو الأظهر كما في قوله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٤]. وجاز الابتداء بالنكرة لأن تنكيرها للتنويع وهو يقوم مقام الوصف المخصص. نعم التنويع في النظير أظهر لذكر المقابل بخلاف ما نحن فيه ولكن لا فرق بعدما ساق المعنى إليه وإن شئت فاعتبر ذلك للتكثير كما اعتبر في: شرّ أهرّ ذا ناب وقيل: ﴿واجفة﴾ صفة ﴿قلوب﴾ مصححة للابتداء بها.

وقوله تعالى: ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ أي أبصار أهلها ذليلة من الخوف ولذلك أضافها إليها فالإضافة لأدنى ملابسة، وجوز أن يراد بالأبصار البصائر أي صارت البصائر ذليلة لا تدرك شيئاً فكنى بذلها عن عدم إدراكها لأن عز البصيرة إنما هي بالإدراك، وبحث في كون القلوب غير مدركة يوم القيامة وأجيب بأن المراد شدة الذهول والحيرة جملة من مبتدأ وخبر في محل رفع على الخبرية لقلوب. وتعقب بأنه قد اشتهر أن حق الصفة أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع حتى قال غير واحد: إن الصفات قبل العلم بها أخبار والأخبار بعد العلم بها صفات، فحيث كان ثبوت الوجيف وثبوت الخشوع لأبصار أصحاب القلوب سواء في المعرفة والجهالة كان جعل الأول عنوان الموضوع مسلم الثبوت مفروغاً عنه، وجعل الثاني مخبراً به مقصود الإفادة تحكماً بحتاً على أن الوجيف الذي هو عبارة عن اضطراب القلب وقلقه من شدة الخوف والوجل أشد من خشوع البصر وأهول فجعل وأهول الشرين عمدة وأشدهما فضلة مما لا عهد له في الكلام، وأيضاً فتخصيص الخشوع بقلوب موصوفة بصفة معينة غير مشعرة بالعموم والشمول تهوين للخطب في موقع التهويل انتهى. وأنت تعلم أن المشتهر وما قاله غير واحد غير مجمع على اطّراده وأن بعض ما اعترض به يندفع على ما يفهمه كلام بعض الأجلّة من جواز جعل المفرد خبراً والجملة بعد صفة لكنه بعيد وما قيل على الأول من أن جعل التنوين للتنويع مع إلباسه مخالف للظاهر وكونه كالوصف معنى تعسف خروج عن الإنصاف. وزعم ابن

عطية أن النكرة تخصصت بقوله تعالى ﴿**يومئذ**﴾ وتعقب بأنه لا تتخصص بالأجرام بظروف الزمان وقدر عصام الدين جواب القسم ليأتين وقال: نحن نقدره كذلك ونجعل يوم ترجف فاعلاً له مرفوع المحل ونجعل ﴿**تتبعها الرادفة**﴾ صفة للراجفة بجعلها في حكم النكرة لكون التعريف للعهد الذهني نحو:

أمرُّ على اللئيم يسبني

وفيه ما فيه وقيل إن الجواب ﴿**تتبعها الرادفة**﴾ و ﴿**يوم**﴾ منصوب به ولام القسم محذوفة أي ليوم كذا تتبعها الرادفة ولم تدخل نون التأكيد لأنه قد فصل بين اللام المقدرة والفعل وليس بذاك. وقال محمد بن عليّ الترمذي: إن جواب القسم ﴿**إن في ذلك لعبرة لمن يخشى**﴾ وهو كما ترى ومثله ما قيل هو ﴿**هل أتاك حديث موسى**﴾ لأنه في تقدير قد أتاك وقال أبو حاتم على التقديم والتأخير كأنه قيل ﴿**فإذا هم بالساهرة**﴾ والنازعات وخطأه ابن الأنباري بأن الفاء لا يفتتح بها الكلام وبالجملة الوجه الوجيه هو ما قدمنا. وقوله تعالى ﴿**يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ**﴾ حكاية لما يقوله المنكرون للبعث المكذبون بالآيات الناطقة به إثر بيان وقوعه بطريق التوكيد القسمي وذكر مقدماته الهائلة وما يعرض عند وقوعها للقلوب والأبصار أي يقولون إذا قيل لهم إنكم تبعثون منكرين له متعجبين منه ﴿**أئنا لمردودون**﴾ بعد موتنا ﴿**في الحافرة**﴾ أي في الحالة الأولى يعنون الحياة كما قال ابن عباس وغيره. وقيل إنه تعالى شأنه لما أقسم على البعث وبيَّن ذلّهم وخوفهم ذكر هنا إقرارهم بالبعث وردهم إلى الحياة بعد الموت فالاستفهام لاستغراب ما شاهدوه بعد الإنكار والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لما يقولون إذ ذاك. والظاهر ما تقدم وإن القول في الدنيا وأيّاً ما كان فهو من قولهم رجع فلان في حافرته أي طريقته التي جاء فيها فحفرها أي أثر فيها بمشيه والقياس المحفورة فهي إما بمعنى ذا حفر أو الإسناد مجازي أو الكلام على الاستعارة المكنية بتشبيه القابل بالفاعل وجعل الحافرية تخييلاً. وذلك نظير ما ذكروا في ﴿عيشة راضية﴾ [القارعة: ٧] ويقال لكل من كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه رجع إلى حافرته وعليه قوله:

أحافرة على صلع وشيب ... معاذ الله من سفه وعار

يريد أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والتصابي بعد أن شبت معاذ الله من ذاك سفهاً وعاراً. ومنه المثل: النقد عند الحافرة، فقد قيل الحافرة فيه بمعنى الحالة الأولى وهي الصفقة أي النقد حال العقد لكن نقل الميداني عن ثعلب أن معناه النقد عند السبق وذلك أن الفرس إذا سبق أخذ الرهن والحافرة الأرض التي حفرها السابق بقوائمه على أحد التأويلات. وقيل ﴿**الحافرة**﴾ جمع الحافر بمعنى القدم أي ﴿**يقولون أئنا لمردودن**﴾ أحياء نمشي على أقدامنا ونطأ بها الأرض ولا يخفى أن أداء اللفظ هذا المعنى غير ظاهر. وعن مجاهد ﴿**الحافرة**﴾ القبور المحفورة أي لمردودون أحياء في قبورنا. وعن زيد بن أسلم هي النار وهو كما ترى. وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة «في الحَفِرَة» بفتح الحاء وكسر الفاء على أنه صفة مشبهة من حفر اللازم كعلم مطاوع حُفِرَ بالبناء للمجهول يقال: حفرت أسنانه فحفرت حفراً بفتحتين إذا أثر الأكال في أسنانها وتغيرت، ويرجع ذلك إلى معنى المحفورة وقيل هي الأرض المنتنة المتغيرة بأجساد موتاها وقوله تعالى ﴿**أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً**﴾ تأكيداً لإنكار البعث بذكر حالة منافية له. والعامل في ﴿**إذا**﴾ مضمر يدل عليه «مردودون» أي: أئذا كنا عظاماً بالية نرد ونبعث مع كونه أبعد شيء من الحياة. وقرأ نافع وابن عامر «إذا كنا» بإسقاط همزة الاستفهام، فقيل: يكون خبر استهزاء بعد الاستفهام الإنكاري، واستظهر أنه متعلق بمردودون. وقرأ

عمر وأبيّ وعبد الله وابن الزبير وابن عباس ومسروق ومجاهد والأخوان وأبو بكر «ناخِرَةً» بالألف وهو كنخرة من نخر العظم أي بلي وصار أجوف تمر به الريح فيسمع له نخير أي صوت وقراءة الأكثرين أبلغ فقد صرحوا بأن فعلاً أبلغ من فاعل وإن كانت حروفه أكثر وقولهم زيادة المبني تدل على زيادة المعنى أغلبي أو إذا اتحد النوع لا إذا اختلف كأن كان فاعل اسم فاعل وفعل صفة مشبهة. نعم تلك القراءة أوفق برؤوس الآي واختيارها لذلك لا يفيد اتحادها مع الأخرى في المبالغة كما وهم وإلى الأبلغية ذهب المعظم. وفسرت النخرة عليه بالأشد بلى. وقال عمرو بن العلاء: النخرة التي قد بليت، والناخرة التي لم تنخر بعد. ونقل اتحاد المعنى عن الفراء وأبي عبيدة وأبي حاتم وآخرين. وقوله تعالى ﴿قَالُوا﴾ حكاية لكفر آخر لهم متفرع على كفرهم السابق ولعل توسيط قالوا بينهما للإيذان بأن صدور هذا الكفر عنهم ليس بطريق الاطّراد والاستمرار مثل كفرهم السابق المستمر صدوره عنهم في كافة أوقاتهم حسبما ينبىء عنه حكايته بصيغة المضارع أي قالوا بطريق الاستهزاء مشيرين إلى ما أنكروه من الرد في الحافرة مشعرين بغاية بعده عن الوقوع ﴿تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي ذات خسر أو خاسر أصحابها أي إذا صحت تلك الرجعة فنحن خاسرون لتكذيبنا بها وأبرزوا ما قطعوا بانتفائه واستحالته في صورة ما يغلب على الظن وقوعه لمزيد الاستهزاء وقال الحسن: ﴿خاسرة﴾ كاذبة أي بكائنة فكان المعنى تلك ﴿إذا كنا عظاماً نخرة﴾ كرة ليست بكائنة وقوله تعالى ﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ تعليل لمقدر يقتضيه إنكارهم ذلك فإنه لما كان مداره استصعابهم الكرة رد عليهم ذلك فقيل لا تحسبوا تلك الكرة صعبة فإنما هي صيحة واحدة أي حاصلة بصيحة واحدة وهي النفخة الثانية عبر عنها بها تنبيهاً على كمال اتصالها بها كأنها عينها، وقيل: هي راجع إلى الرادفة. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ حينئذ بيان لترتب الكرة على الزجرة مفاجأة أي فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعدما كانوا أمواتاً في بطنها. وعلى الأول بيان لحضورهم الموقف عقيب الكرة التي عبر عنها بالزجرة والساهرة قيل وجه الأرض والفلاة وأنشدوا قول أمية بن أبي الصلت:

وفيها لحم **ساهرة** وبحر ... وما فاهوا به أبداً مقيم

وفي الكشاف الأرض البيضاء أي التي لا نبات فيها المستوية، سميت بذلك لأن السراب يجري فيها من قولهم: عين ساهرة جارية الماء وفي ضدها نائمة. قال الأشعث بن قيس:

وساهرة يضحي السراب مجللاً ... لأقطارها قد جبتها متلثما

أو لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة وفي الأول مجاز على المجاز، وعلى الثاني السهر على حقيقته والتجوز في الإسناد وحكى الراغب فيها قولين الأول أنها وجه الأرض، والثاني أنها أرض القيامة ثم قال: وحقيقتها التي يكثر الوطء بها فكأنها سهرت من ذلك إشارة إلى نحو ما قال الشاعر:

تحرك يقظان التراب ونائمه

وروى الضحاك عن ابن عباس أن الساهرة أرض من فضة لم يعص الله تعالى عليها قط يخلقها عز وجل حينئذ، وعنه أيضاً أنها أرض مكة وقيل: وهي الأرض السابعة يأتي الله تعالى بها فيحاسب الخلائق عليها وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض. وقال وهب بن منبه: جبل بالشام يمده الله تعالى يوم القيامة لحشر الناس. وقال أبو العالية وسفيان: أرض قريبة من بيت المقدس، وقيل: الساهرة بمعنى الصحراء على شفير جهنم، وقال قتادة: وهي جهنم لأنه لا نوم لمن فيها. وقوله تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ كلام مستأنف وارد لتسلية رسول الله ﷺ

من تكذيب قومه وتهديدهم عليه بأن يصيبهم مثل ما أصاب من كان أقوى منهم وأعظم. ومعنى ﴿**هل أتاك**﴾ أن اعتبر أن هذا أول ما أتاه عليه الصلاة والسلام من حديثه عليه السلام ترغيب له ﷺ في استماع حديثه كأنه قيل: هل أتاك حديثه أنا أخبرك به وإن اعتبر إتيانه قبل هذا وهو المتبادر من الإيجاز في الاقتصاص أليس قد أتاك حديثه وليس هل بمعنى قد على شيء من الوجهين. وقوله تعالى ﴿**إِذْ نَادَاهُ رَبُّه بْالوَاد الْـمُقَدَّسِ طُوًى**﴾ ظرف للحديث لا للإتيان لاختلاف وقتيهما وجوز كونه مفعول اذكر مقدراً. وتقدم الكلام في الواد المقدس واختلاف القراء في ﴿**طوى**﴾ ﴿**اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ**﴾ على إرادة القول والتقدير وقال له أو قائلاً له ﴿**اذهب**﴾ الخ. وقيل: هو تفسير للنداء أي ناداه اذهب وقيل: هو على حذف أن المفسرة يدل عليه قراءة عبد الله أن اذهب لأن في النداء معنى القول وجوز أن يكون بتقدير المصدرية قبلها حرف جر ﴿**إِنَّهُ طغَى**﴾ تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به ﴿**فَقُلْ**﴾ بعدما أتيته ﴿**هَلْ لَكَ إلى أنْ تَزَكَّى**﴾ أي هل لك ميل إلى أن تتزكى فلك في موضع الخبر لمبتدأ محذوف و ﴿**إلى أن تزكى**﴾ متعلق بذلك المبتدأ المحذوف ونحوه قول الشاعر:

فهل لكم فيها إليَّ فإنني ... بصير بما أعيا النطاسي حذيما

قد يقال هل لك في كذا فيؤتى بفي ويقدر المبتدأ رغبة ونحوه مما يتعدى بها، ومنهم من قدره هنا رغبة لأنها تعدى بها أيضاً وقال أبو البقاء: لما كان المعنى أدعوك جيء بإلى ولعله جعل الظرف متعلقاً بمعنى الكلام أو بمقدر يدل عليه و ﴿**تزكى**﴾ بحذف إحدى التاءين أي تتطهر من دنس الكفر والطغيان وقرأ الحرميان وأبو عمر بخلاف «تَزَّكّى» بتشديد الزاي وأصله كما أشرنا إليه تتزكى فأدغمت التاء الثانية في الزاي ﴿**وأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ**﴾ أي أرشدك إلى معرفته عز وجل فتعرفه ﴿**فَتَـخْشَىٰ**﴾ إذ الخشية لا تكون إلاّ بعد معرفته قال الله تعالى ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وجعل الخشية غاية للهداية لأنها ملاك الأمر مَن خشي الله تعالى أتى منه كل خير، ومَن أمن اجترأ على كل شر. ومنه قوله ﷺ فيما رواه الترمذي عن أبي هريرة: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل». وفي الاستفهام ما لا يخفى من التلطف في الدعوة والاستنزال عن العتو وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى ﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾ [طه: ٤٤] وتقديم التزكية على الهداية لأنها تخلية. والفاء في قوله تعالى ﴿**فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى**﴾ فصيحة تفصح عن جمل قد طويت تعويلاً على تفصيلها في موضع آخر كأنه قيل فذهب وكان كيت وكيت فأراه. واقتصر الزمخشري في الحواشي على تقدير جملة فقال: إن هذا معطوف على محذوف والتقدير فذهب فأراه لأن قوله تعالى ﴿**اذهب**﴾ يدل عليه فهو على نحو ﴿**اضرب بعصاك الحجر فانبجست**﴾ والإراءة إما بمعنى التعريف فإن اللعين حين أبصرها عرفها، وادعاء سحريتها إنما كان وادعاء سحريتها إنما كان إظهاراً للتجلد ونسبتها إليه عليه الصلاة والسلام بالنظر إلى الظاهر كما أن نسبتها إلى نون العظمة في قوله تعالى ﴿ولقد أريناه آياتنا﴾ [طه: ٥٦] بالنظر إلى الحقيقة والمراد بالآية الكبرى على ما رُوي عن ابن عباس قلب العصا حية فإنها كانت المقدمة والأصل والأخرى كالتبع لها، وعلى ما روي عن مجاهد ذلك واليد البيضاء فإنهما باعتبار الدلالة كالآية الواحدة وقد عبر عنهما بصيغة الجمع في قوله تعالى ﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي﴾ [طه: ٤٢] باعتبار ما في تضاعيفهما من بدائع الأمور التي كل منها آية بينة لقوم يعقلون وجوز أن يراد بها مجموع معجزاته عليه السلام والوحدة باعتبار ما ذكر والفاء لتعقيب أولها أو مجموعها باعتبار أولها، وكونها كبرى باعتبار معجزات من قبله من الرسل عليهم السلام أو هو للزيادة المطلقة ولا يخفى بعده، ويزيده بعداً ترتيب حشر السحر بعد فإنه لم يكن إلاّ على إراءة تينك الآيتين وإدباره

عن العمل بمقتضاهما وإما ما عداهما من التسع فإنما ظهر على يده عليه السلام بعدما غلب السحرة على مهل في نحو من عشرين سنة. وزعم غلاة الشيعة أن الآية الكبرى عليّ كرم الله تعالى وجهه أراه إياه متطورة روحه الكريمة بأعظم طور وهو هذيان وراء طور العقل وطور النقل ﴿**فَكَذَّبَ**﴾ بموسى عليه السلام وسمى معجزته سحراً ﴿**وَعَصَىٰ**﴾ الله تعالى بالتمرد بعدما علم صحة الأمر ووجوب الطاعة أشد عصيان وأقبحه حيث اجترأ على إنكار وجود رب العالمين رأساً وكان اللعين وقومه مأمورين بعبادته عز وجل وترك العظمة التي يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية لا بإرسال بني إسرائيل من الأسر والقسر فقط، وفي جعل متعلق التكذيب موسى عليه السلام ومتعلق العصيان الله عز وجل ما ليس في جعلهما موسى كما قيل فكذب موسى عصاه من الذم كما لا يخفى.

﴿**ثُمَّ أَدْبَرَ**﴾ تولى عن الطاعة ﴿**يَسْعَىٰ**﴾ أي ساعياً مجتهداً في إبطال أمره عليه السلام ومعارضة الآية وثم لأن إبطال ذلك ونقضه يقتضي زماناً طويلاً، وجوز أن يكون الإدبار على حقيقته أي ثم انصرف عن المجلس ساعياً في إبطال ذلك، وقيل: أدبر يسعى هارباً من الثعبان فإنه رُوي أنه لما ألقى العصا انقلبت ثعباناً أشعر فاغراً فاه بين لحييه ثمانون ذراعاً فوضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر فهرب فرعون وأحدث وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً من قومه. وفي بعض الآثار أنها انقلبت حية وارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون وجعلت تقول: يا موسى مرني بما شئت، يقول فرعون: أنشدك بالذي أرسلك إلاّ أخذته فأخذه فعاد عصى، وأنت تعلم أن هذا إن كان بعد حشر السحرة للمعارضة كما هو المشهور فلا تظهر صحة إرادته ها هنا إذا أريد بالحشر بعد حشرهم وإن كان بعد التكذيب والعصيان وقبل الحشر فلا يظهر تراخيه عن الأولين نعم قيل إن ثم عليه للدلالة على استبعاد إدباره مرعوباً مسرعاً مع زعمه الإلهية وقيل: أريد بقوله سبحانه ﴿**ثم أدبر**﴾ ثم أقبل يفعل أي أنشأ لكن جعل الإدبار موضع الإقبال تلميحاً وتنبيهاً على أنه كان عليه دماراً وإدباراً ﴿**فَحَشَرَ**﴾ أي فجمع السحرة لقوله تعالى ﴿فأرسل فرعون في المدائن حاشرين﴾ [الشعراء: ٥٣] وقوله سبحانه ﴿فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى﴾ [طه: ٦٠] أي ما يكاد به من السحرة وآلاتهم وقيل جمع جنوده وجوز أن يراد جمع أهل مملكته ﴿**فَنَادَىٰ**﴾ في المجمع نفسه أو بواسطة المنادي وأيد الأول بقوله تعالى ﴿**فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ**﴾ وعلى الثاني فيه تقدير أي فقال: يقول فرعون ﴿**أنا ربكم**﴾ الخ مع ما في الثاني من التجوز وفي بعض الآثار أنه قام فيهم خطيباً فقال تلك العظيمة وأراد اللعين تفضيل نفسه على كل من يلي أمورهم ﴿**فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ والأُولَىٰ**﴾ النكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم وهو التعذيب الذي ينكل من رآه أو سمعه ويمنعه من تعاطي ما يفضي إليه وهو نصب على أنه مصدر مؤكد كـ ﴿وعد الله﴾ [النساء: ١٢٢ وغيرها] و ﴿صبغة الله﴾ [البقرة: ١٣٨] كأنه قيل نكل الله تعالى به نكال الآخرة والأولى وهو الإحراق في الآخرة والإغراق والإذلال في الدنيا، وجوز أن يكون نصباً على أنه مفعول مطلق لأخذ أي أخذه الله تعالى أخذ نكال الآخرة إلخ. وأن يكون مفعولاً له أي أخذه لأجل نكال إلخ. وأن يكون نصباً بنزع الخافض أي أخذه بنكال الآخرة والأولى وإضافته إلى الدارين باعتبار وقوع نفس الأخذ فيهما لا باعتبار أن ما فيه من معنى المنع يكون فيهما فإن ذلك لا يتصور في الآخرة بل في الدنيا فإن العقوبة الأخروية تنكل من سمعها وتمنعه من تعاطي ما يؤدي إليها فيها وأن يكون في تأويل المشتق حالاً وإضافته على معنى في أي منكلاً لمن رآه أو سمع به في الآخرة والأولى، وجوز أن تكون الإضافة عليه لامية وحمل الآخرة والأولى على الدارين هو الظاهر. ورُوي عن الحسن وابن زيد وغيرهما وعن ابن عباس وعكرمة

والضحاك والشعبي أن الآخرة قولته ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ والأولى قولته ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: ٣٨] وقيل بالعكس فهما كلمتان وكان بينهما على ما قالوا أربعون سنة. وقال أبو رزين ﴿الأولى﴾ حالة كفره وعصيانه و ﴿الآخرة﴾ قولته ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وعن مجاهد أنهما عبارتان عن أول معاصيه وآخرها أي نكل بالجميع والإضافة على جميع ذلك من إضافة المسبب إلى السبب ومآل من يقول بقبول إيمان فرعون إلى هذه الأقوال، وجعل ذلك النكال الإغراق في الدنيا وقد قدمنا الكلام في هذا المقام.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل وما فعل به ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظيمة ﴿لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾ أي لمن شأنه أن يخشى وهو من من شأنه المعرفة وهذا إما لأن من كان في خشية لا يحتاج للاعتبار أو ليشمل من يخشى بالفعل ومن كان من شأنه ذلك على ما قيل. وقوله تعالى ﴿أأنتم أشدُّ خلقا﴾ خطاب للمخاطبين في جواب القسم أعني لتبعثن من أهل مكة المنكرين للبعث بناء على صعوبته في زعمهم بطريق التوبيخ والتبكيت بعدما بيّن كمال سهولته بالنسبة إلى قدرة الله تعالى بقوله سبحانه ﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ [الصافات: ٨٩، النازعات: ١٣] ونصب ﴿خلقا﴾ على التمييز وهو محول عن المبتدأ أي أخلقكم بعد موتكم ﴿أشد﴾ أي أشق وأصعب في تقديركم ﴿أم السَّمَاءُ﴾ أي أم خلق السماء على عظمها وانطوائها على تعاجيب البدائع التي تحار العقول عن ملاحظة أدناها وقوله تعالى: ﴿بَنَاها﴾ الخ بيان وتفصيل لكيفية خلقها المستفاد من قوله تعالى ﴿أم السماء﴾ وفي عدم ذكر الفاعل فيه وفيما عطف من الأفعال من التنبيه على تعيينه وتفخيم شأنه عز وجل ما لا يخفى. وقوله سبحانه ﴿رَفَعَ سَمْكَها﴾ بيان للبناء أي جعل مقدار ارتفاعها من الأرض وذهابها إلى سمت العلو مديداً رفيعاً، وجوز أن يفسر السمك بالثخن فالمعنى جعل ثخنها مرتفعاً في جهة العلو. ويقال للثخن سمك لما فيه من ارتفاع السطح الأعلى عن السطح الأسفل وإذا لوحظ هذا الامتداد العلو للسفل قيل له عمق ونظير ذلك الدرج والدرك وقد جاء في الأخبار الصحيحة أن ارتفاع السماء الدنيا عن الأرض خمسمائة عام وارتفاع كل سماء عن سماء وثخن كل كذلك، والظاهر تقدير ذلك بالسير المتعارف وأن المراد بالعدد المذكور التحديد دون التكثير ونحن مع الظاهر إلاّ أن يمنع عنه مانع ﴿فسوَّاها﴾ أي جعلها سواء فيما اقتضته الحكمة فلم يخل عز وجل قطعة منها عما تقتضيه الحكمة فيها، ومن ذلك تزيينها بالكواكب وقيل تسويتها جعلها ملساء ليس في سطحها انخفاض وارتفاع. وقيل: جعلها بسيطة متشابهة الأجزاء والشكل فليس بعضها سطحاً وبعضها زاوية وبعضها خطاً وهو قول بكريتها الحقيقية وإليه ذهب كثير. وقالوا: وحكاه الإمام لما ثبت أنها محدثة مفتقرة إلى فاعل مختار فأي ضرر في الدين ينشأ من كونها كرية وقيل تسويتها

تتميمها بما يتم به كمالها من الكواكب والمتممات والتداوير وغيرها مما بيّن في علم الهيئة من قولهم: سوّى أمره أي أصلحه أو من قولهم: استوت الفاكهة إذا نضجت، وأنت تعلم أن هذا مع بنائه على اتحاد السماوات والأفلاك غير معروف في الصدر الأول من المسلمين لعدم وروده عن صاحب المعراج رسول الله ﷺ وعدم ظهور الدليل عليه والأدلة التي يذكرها الهيئة لتلك الأمور لا يخفى حالها ولذا لم يقل بما تقتضيه مخالفوهم من أهل الهيئة اليوم والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ﴿وأغْطَش لَيلَها﴾ أي جعله مظلماً، يقال: غطش الليل وأغطشه الله تعالى كما يقال: ظلم وأظلمه، ويقال أيضاً: أغطش الليل كما يقال أظلم وجاء ليلة غطشاء وليل أغطش وغطش. قال الأعشى:

عقرت لهم ناقتي موهناً ... فليلهم مدلهم غطش

وفي البحر عن كتاب اللغات في القرآن ﴿أغطش﴾ أظلم بلغة أنمار وأشعر ﴿وأخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي أبرز نهارها، والضحى في الأصل على ما يفهم من كلام الراغب انبساط الشمس وامتداد النهار ثم سُمّي به الوقت المعروف وشاع في ذلك وتجوز به عن النهار بقرينة المقابلة. وقيل: الكلام على حذف مضاف أي ضحى شمسها أي ضوء شمسها وكنى بذلك عن النهار والأول أقرب، وعبر عن النهار بالضحى لأنه أشرف أوقاته وأطيبها وفيه من انتعاش الأرواح ما ليس في سائرها فكان أوفق لمقام تذكير الحجة على منكري البعث وإعادة الأرواح إلى أبدانها. وقيل: إنه لذلك كان أحق بالذكر في مقام الامتنان وإضافة الليل والضحى إلى السماء لأنهما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها وهي سماوية أو وهما إنما يحصلان بسبب حركتها على القول بحركتها لاتحادها مع الفلك أو وهما إنما يحصلان بسبب حركة الشمس في فلكها فيها على القول بأن السماء والفلك متغايران والمتحرك إنما هو الكوكب في الفلك كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى ﴿كل في فلك يسبحون﴾ [الأنبياء: ٣٣، يس: ٤٠] وإن الفلك ليس إلاّ مجرى الكوكب في السماء، وقيل: أضيفا إليها لأنهما أول ما يظهران منها إذ أول الليل بإقبال الظلام من جهة المشرق، وأول النهار بطلوع الفجر وإقبال الضياء منه. وفي الكشاف أضيف الليل والشمس إلى السماء لأن الليل ظلها والشمس هي السراج المثقب في جوّها، واعترض بأن الليل ظل الأرض وأجيب بأنه اعتبار بمرأى الناظر كذلك كما أن زينة السماء الدنيا أيضاً اعتبار بمرأى الناظر. وقيل إضافتهما إليها باعتبار أنهما إنما يحدثان تحتها وشملا بهذا الاعتبار ما لم يكد يخطر في أذهان العرب من ليل ونهار طول كل منهما ستة أشهر وهما ليل ونهار عرض تسعين حيث الدور رحوي وتعقب بأنهم قالوا: إن ظل الأرض المخروطي ينتهي إلى فلك الزهرة وهي في السماء الثالثة فالحصر غير تام وفيه نظر فتأمل، وبالجملة الإضافة لأدنى ملابسة. ﴿والأرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الظاهر أنه إشارة إلى ما تقدم من خلق السماء وإغطاش الليل وإخراج النهار دون خلق السماء فقط، وانتصاب ﴿الأرض﴾ بمضمر قيل على شريطة التفسير وقيل تقديره تذكر أو تدبر أو اذكر وستعلم ما في ذلك إن شاء الله تعالى. ومعنى قوله تعالى ﴿دَحَاها﴾ بسطها ومدها لسكنى أهلها وتقلبهم في أقطارها من الدحو أو الدحي بمعنى البسط وعليه قول أمية بن أبي الصلت:

وبث الخلق فيها إذ دحاها ... فهم قطانها حتى التنادي

وقيل: ﴿دحاها﴾ سواها. وأنشدوا قول زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخراً ثقالا

دحاها فلما استوت شدها ... بأيد وأرسى عليها الجبالا

والأكثرون على الأول. وأنشد الإمام بيت زيد فيه والظاهر أن دحوها بعد خلقها وقيل مع خلقها فالمراد خلقها مدحوة ورُوي الأول عن ابن عباس ودفع به توهم تعارض بين آيتين. أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه أن رجلاً قال له: آيتان في كتاب الله تعالى تخالف إحداهما الأخرى، فقال: إنما أتيت من قبل رأيك اقرأ قال ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ـ حتى بلغ ـ ثم استوى إلى السماء﴾ [فصلت: ٩ ـ ١١] وقوله تعالى ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها**﴾ قال: خلق الله تعالى الأرض قبل أن يخلق السماء، ثم خلق السماء ثم دحا الأرض بعدما خلق السماء، وإنما قوله سبحانه ﴿**دحاها**﴾ بسطها وتعقبه الإمام بأن الجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوي ويستحيل أن يكون هذا الجسم العظيم مخلوقاً ولا يكون ظاهره مدحواً مبسوطاً. وأجيب أنه لعل مراد القائل بخلقها أولاً ثم دحوها ثانياً خلق مادتها أولاً ثم تركيبها وإظهارها على هذه الصورة والشكل مدحوة مبسوطة وهذا كما قيل في قوله تعالى ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات﴾ [البقرة: ٢٩] إن السماء خلقت مادتها أولاً ثم سويت وأظهرت على صورتها اليوم. وعن الحسن ما يدل على أنها كانت يوم خلقت قبل الدحو كهيئة الفهر ويشعر بأنها لم تكن على عظمها اليوم وتعقبه بعضهم بشيء آخر وهو أنه يأبى ذلك قوله تعالى ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء﴾ [البقرة: ٢٩] الآية فإنه يفيد أن خلق ما في الأرض قبل خلق السماوات، ومن المعلوم أن خلق ما فيها إنما هو بعد الدحو فكيف يكون الدحو بعد خلق السماوات. وأجيب بأن ﴿**خلق**﴾ في الآية بمعنى قدر أو أراد الخلق ولا يمكن أن يراد به فيها الإيجاد بالفعل ضرورة أن جميع المنافع الأرضية يتجدد إيجادها أولاً فأولاً سلمنا أن المراد الإيجاد بالفعل لكن يجوز أن يكون المراد خلق مادة ذلك بالفعل، ومن الناس من حمل ﴿**ثم**﴾ على التراخي الرتبي لأن خلق السماء أعجب من خلق الأرض. وقال عصام الدين إن ﴿**بعد ذلك**﴾ هنا كما في قوله تعالى ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾ [القلم: ١٣] يعني فعل بالأرض ما فعل بعدما سمعت في السماء. والمراد التأخير في الأخبار فخلقُ الأرض ودحوها وإخراج مائها ومرعاها وإرساء الجبال عليها عنده قبل خلق السماء كما يقتضيه ظاهر آية البقرة وظاهر آية الدخان، وأيد حمل البعدية على ما ذكر بأن حملها على ظاهرها مع حمل الإشارة على الإشارة إلى مجموع ما تقدم مما سمعت يلزم عليه أن إغطاش الليل وإبراز النهار كانا قبل خلق الأرض ودحوها وذلك مما لا يتسنى على تقدير أنها غير مخلوقة أصلاً ومما يبعد على تقدير أنها مخلوقة غير عظيمة، وأيضاً قيل لو لم تحمل البعدية ما ذكر وقيل بنحو ما قال ابن عباس من تأخر الدحو عن خلق السماء مع تقدم خلق الأرض من غير دحو على خلقها لم تنحسم مادة الإشكال إذ آية الدخان ظاهرة في أن جعل الرواسي في الأرض قبل خلق السماء وتسويتها، وهذه الآية إلى آخرها ظاهرة في أن جعل الرواسي بعد وبالجملة أنه قد اختلف أهل التفسير في أن خلق السماء مقدم على خلق الأرض أو مؤخر؟ فقال ابن الطاشكبري: نقل الواحدي عن مقاتل أن خلق السماء مقدم على خلق الأرض واختاره جمع لكنهم قالوا إن خلق ما فيها مؤخر وأجابوا عما هنا وآية البقرة بأن الخلق فيها بمعنى التقدير أو بمعنى الإيجاد وتقدير الإرادة، وأن البعدية ها هنا لإيجاد الأرض وجميع ما فيها وعما هنا وآية الدخان بنحو ذلك فقدروا الإرادة في قوله تعالى ﴿خلق الأرض في يومين﴾ [فصلت: ٩] وكذا في قوله سبحانه ﴿**وجعل فيها رواسي**﴾ وقالوا: يؤيد ما ذكر قوله تعالى ﴿فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ [فصلت: ١١] فإن الظاهر أن المراد ﴿**أئتيا**﴾ في الوجود ولو كانت الأرض موجودة سابقة لما صح هذا فكأنه قال سبحانه: أئنكم لتكفرون بالذي أراد إيجاد الأرض وما فيها من الرواسي والأقوات في أربعة أيام ثم قصد إلى السماء فتعلقت إرادته بإيجاد السماء والأرض فأطاعا لأمر التكوين فأوجد سبع

سماوات في يومين، وأوجد الأرض وما فيها في أربعة أيام ونكتة تقديم خلق الأرض وما فيها في الظاهر في سورتي البقرة والدخان على خلق السماوات والعكس ها هنا أن المقام في الأولين مقام الإمتنان وتعداد النعم على أهل الكفر والإيمان فمقتضاه تقديم ما هو نعمة بالنظر إلى المخاطبين من الفريقين فكأنه قال سبحانه هو الذي دبر أمركم قبل السماء ثم خلق السماء. والمقام هنا مقام بيان كمال القدرة فمقتضاه تقديم ما هو أدل انتهى. وفي الكشف أطبق أهل التفسير أنه تم خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام ثم خلق السماء في يومين إلاّ ما نقل الواحدي في البسيط عن مقاتل أن خلق السماء مقدم على إيجاد الأرض فضلاً عن دحوها. والكلام مع من فرق بين الإيجاد والدحو وما قيل إن دحو الأرض متأخر عن خلق السماء لا عن تسويتها يرد عليه بعد ذلك فإنه إشارة إلى السابق وهو رفع السمك والتسوية والجواب بتراخي الرتبة لا يتم لما نقل من إطباق المفسرين فالوجه أن يجعل ﴿الأرض﴾ منصوباً بمضمر نحو تذكر وتدبر واذكر الأرض بعد ذلك وإن جعل مضمراً على شريطة التفسير جعل بعد ذلك إشارة إلى المذكور سابقاً من ذكر خلق السماء لا خلق السماء نفسه ليدل على أنه متأخر في الذكر عن خلق السماء تنبيهاً على أنه قاصر في الدلالة عن الأول لكنه تتميم كما تقول جملاً ثم تقول بعد ذلك كيت وكيت، وهذا كثير في استعمال العرب والعجم وكان بعد ذلك بهذا المعنى عكسه إذا استعمل لتراخي الرتبة وقد تستعمل ﴿ثم﴾ بهذا المعنى وكذا الفاء وهذا لا ينافي قول الحسن إنه تعالى خلق الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السماوات وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرض وذلك قوله تعالى ﴿كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ [الأنبياء: ٣٠] الآية فإنه يدل على أن كون السماء دخاناً سابق على دحو الأرض وتسويتها وهو كذلك بل ظاهر قوله تعالى ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ [فصلت: ١١] يدل على ذلك وإيجاد الجوهرة النورية والنظر إليها بعين الجلال المبطن بالرحمة والجمال وذوبها وامتياز لطيفها عن كثيفها وصعود المادة الدخانية اللطيفة وبقاء الكثيف هذا كله سابق على الأيام الستة، وثبت في الخبر الصحيح ولا ينافي الآيات وأما ما نقله الواحدي عن مقاتل واختاره الإمام فلا إشكال فيه ويتعين ثم في سورتي البقرة والسجدة على تراخي الرتبة وهو أوفق لمشهور قواعد الحكماء لكن لا يوافق ما رُوي أنه تعالى خلق جرم الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين، ودحاها وخلق ما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وخلق السماوات وما فيها في يوم الخميس والجمعة، وفي آخر يوم الجمعة ثم خلق آدم عليه السلام انتهى. والذي أميل إليه أن تسوية السماء بما فيها سابقة على تسوية الأرض بما فيها لظهور أمر العلية في الأجرام العلوية وأمر المعلولية في الأجرام السفلية ويعلم تأويل ما ينافي ذلك مما سمعت. وأما الخبر الأخير ففي صحته مقال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال وقد مر شيء مما يتعلق بهذا المقام وإنما أعدنا الكلام فيه تذكيراً لذوي الأفهام فتأمل والله تعالى الموفق لتحصيل المرام.

وقوله تعالى ﴿أَخرَجَ مِنهَا ماءَهَا﴾ بأن فجّر منها عيوناً وأجرى أنهاراً ﴿ومرعاها﴾ يقع على الرعي بالكسر وهو الكلأ والرعي بالفتح وهو المصدر وكذا على الموضع والزمان، وزعم بعضهم أنه في الأصل للموضع ولعله أراد أنه أشهر معانيه والمناسب للمقام المعنى الأول لكنه قيل إنه خاص بما يأكله الحيوان غير الإنسان وتجوز به عن مطلق المأكول للإنسان وغيره فهو مجاز مرسل من قبيل المرسن. وقال الطيبي: يجوز أن يكون استعارة مصرحة لأن الكلام مع منكري الحشر بشهادة ﴿أأنتم أشد خلقا﴾ كأنه قيل أيها المعاندون الملزوزون في قرن البهائم في التمتع بالدنيا والذهول عن الآخرة بيان وتفسير لدحاها وتكملة له فإن السكنى لا تتأتى بمجرد البسط والتمهيد بل لا بد من تسوية أمر المعاش من المأكل والمشرب أو حال من فاعله بإضمار قد أو بدونه

وكلا الوجهين مقتضٍ لتجريد الجملة عن العاطف. وقوله تعالى ﴿والْجِبالَ﴾ منصوب بمضمر يفسره قوله سبحانه ﴿أرساها﴾ أي أثبتها وفيه تنبيه على أن الرسو المنسوب إليها في مواضع كثيرة من التنزيل ليس من مقتضيات ذاتها وللفلاسفة المحدثين كلام في أمر الأرض وكيفية بدئها لا مستند لهم فيه إلاّ آثار أرضية يزعمون دلالتها على ذلك هي في أسفل الأرض عن ساحة القبول. وقرأ عيسى برفع «الأرض» والحسن وأبو حيوة وعمرو بن عبيد وابن أبي عبلة وأبو السمال برفع «الأرض» «والجبال» وهو على ما قيل على الابتداء، وتعقبه الزجاج بأن ذلك مرجوح لأن العطف على فعلية وأورد عليه أن قوله تعالى ﴿بناها﴾ بيان لكيفية خلق السماء وقوله سبحانه ﴿رفع سمكها﴾ بيان للبناء وليس لدحو الأرض وما بعده دخل في شيء من ذلك فكيف يعطف عليه ما هو معطوف على المجموع عطف القصة على القصة والمعتبر فيه تناسب القصتين وهو حاصل هنا فلا ضير في الاختلاف بل فيه نوع تنبيه على ذلك. وقيل: إن جملة قوله تعالى ﴿والأرض﴾ الخ على القراءتين ليست معطوفة على قوله سبحانه ﴿رفع سمكها﴾ لأنها لا تصلح بياناً لبناء السماء فلا بد من تقدير معطوف عليه وحينئذ يقدر جملة فعلية على قراءة الجمهور أي فعل ما فعل في السماء، وجملة اسمية على قراءة الآخرين أي السماء وما يتعلق بها مخلوق له تعالى. وجوز عطف «الأرض» بالرفع على «السماء» من حيث المعنى كأنه قيل السماء أشد خلقاً والأرض بعد ذلك أي والأرض بعدما ذكر من السماء أشد خلقاً فيكون وزان قوله تعالى ﴿دحاها﴾ الخ وزان قوله تعالى ﴿بناها﴾ الخ وحينئذ فلا يكون بعد ذلك مشعراً بتأخر دحو الأرض عن بناء السماء. وقوله تعالى ﴿مَتَاعاً لَكُمْ ولأنعَامِكُمْ﴾ قيل مفعول له أي فعل ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم لأن فائدة ما ذكر من الدحو وإخراج الماء والمرعى واصلة إليهم ولأنعامهم فإن المرعى كما سمعت مجاز عما يأكله الإنسان وغيره، وقيل: مصدر مؤكد لفعله المضمر أي متعكم بذلك متاعاً أو مصدر من غير لفظه فإن قوله تعالى ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ في معنى متع بذلك وأورد على الأول أن الخطاب لمنكري البعث والمقصود هو تمتيع المؤمنين فلا يلائم جعل تمتيع الآخرين كالغرض فالأولى ما بعده. وأجيب بأن خطاب المشافهة وإن كان خاصاً بالحاضرين إلاّ أن حكمه عام كما تقرر في الأصول فالمآل إلى تمتيع الجنس وأيضاً النصب على المصدرية بفعله المقدر لا يدفع المحذور لكونه استئنافاً لبيان المقصود ولا يخفى أن كون المقصود هو تمتيع المؤمنين محل بحث. وقوله سبحانه ﴿فإذا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ الخ شروع في بيان معادهم إثر بيان أحوال معاشهم بقوله عز وجل ﴿متاعاً﴾ إلخ والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها على ما قيل كما ينبىء عنه لفظ المتاع، والطامة أعظم الدواهي لأنه من طم بمعنى علا كما ورد في المثل: جرى الوادي فطمّ على القرى، وجاء السيل فطمّ الركيّ. وعلوها على الدواهي غلبتها عليها فيرجع لما ذكر قيل، فوصفها «بالكبرى» للتأكيد ولو فسر كونها طامة بكونها غالبة للخلائق لا يقدرون على دفعها لكان الوصف مخصصاً، وقيل كونها طامة باعتبار أنها تغلب وتفوق ما عرفوه من دواهي الدنيا وكونها كبرى باعتبار أنها أعظم من جميع الدواهي مطلقاً وقيل غير ذلك. وأنت تعلم أن ﴿الطامّة الكبرى﴾ صارت كالعلم للقيامة وروي كونها اسماً من أسمائها هنا عن ابن عباس وعنه أيضاً وعن الحسن أنها النفخة الثانية. وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن القاسم بن الوليد الهمداني أنها الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار. وأخرجا عن عمرو بن قيس الكندي أنها ساعة يساق أهل النار إلى النار وفي معناه قول مجاهد هي إذا دفعوا إلى مالك خازن جهنم ﴿يَوْمَ يَتَذَكرُ الإنْسَانُ ما سَعَى﴾ بدل كل أو بعض من إذا جاءت على ما قيل، وقيل: بدل من ﴿الطامة الكبرى﴾ فيكون مرفوع المحل وفتح لإضافته إلى الفعل على رأي الكوفيين

وتكون الطامة حقيقة التذكر البروز لأن حسن العمل يغلب كل لذة وسواه كل مشقة وكذا بروز الجحيم مع الابتلاء به يغلب كل مشقة ومع النجاة عنه كل لذة إلا يخفى تعسفه. وقيل: ظرف لـ ﴿جاءت﴾ وعليه الطبرسي واستظهر أنه منصوب بأعني تفسيراً للطامة الكبرى و ﴿ما﴾ موصولة و ﴿سعى﴾ بمعنى عمل والعائد مقدر أي له والمراد يوم يتذكر كل أحد ما عمله من خير أو شر بأن يشاهده مدوّناً في صحيفته وقد كان نسيه من فرط الغفلة أو طول الأمد أو شدة ما لقي أو كثرته التي تعجز الحافظ عن الضبط لقوله تعالى ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ [المجادلة: ٦] ويمكن أن يكون تذكره بوجه آخر، وجوّز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية أي يتذكر فيه سعيه.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ عطف على ﴿جاءت﴾ وقيل على ﴿يتذكر﴾ وقيل حال من الإنسان بتقدير قد أو بدونه، والموصول بعد مغنٍ عن العائد، وكلا القولين على ما في الإرشاد على تقدير الجواب يتذكر الإنسان ونحوه وسيأتي إن شاء الله تعالى فلا تغفل. ومعنى ﴿برزت﴾ أظهرت إظهاراً بيّناً لا يخفى على أحد ﴿لِمَنْ يَرَى﴾ كائناً من كان يروي أنه يكشف عنها فتتلظى فيراها كل ذي بصر وخص بعض من بالكافر وليس بشيء. وقرأت عائشة وزيد بن علي وعكرمة ومالك بن دينار «وبَرَزَتِ» مبنياً للفاعل مخففاً لمن ترى بالتاء الفوقية على أن فيه ضمير جهنم كما في قوله تعالى ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد﴾ [الفرقان: ١٢] وإسناد الرؤية لها مجازاً وهو حقيقة على أن يخلق الله تعالى ذلك فيها، ويجوز أن تكون خطاباً لسيد المخاطبين ﷺ أو لكل راءٍ كقوله تعالى ﴿ولو ترى إذ المجرمون﴾ [السجدة: ١٢] أي لمن تراه من الكفار. وقرأ أبو نهيك وأبو السمال وهارون عن أبي عمرو «وبُرِزَتِ» مبنياً للمفعول مخففاً وقوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ الخ جواب «إذا» على أنها شرطية لا ظرفية كما جوز على طريقة قوله تعالى ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ [البقرة: ٣٨، طه: ١٢٣] الآية. وقولك إذا جاءك بنو تميم فأما العاصي فأهنه وأما الطائع فأكرمه. واختاره أبو حيان وقيل: جوابها محذوف كأنه قيل فإذا جاءت وقع ما لا يدخل تحت الوصف. وقوله سبحانه ﴿فأمّا﴾ الخ تفصيل لذلك المحذوف وفي جعله جواباً غموض وهو وجه وجيه بيد أنه لا غموض في ذاك بعد تحقق استقامة أن يقال فإذا جاءت فإن الطاغي الجحيم مأواه وغيره في الجنة مثواه وزيادة أما لم تفد إلاّ زيادة المبالغة وتحقيق الترتب والثبوت على كل تقدير، وقيل: هو محذوف لدلالة ما قبل والتقدير ظهرت الأعمال ونشرت الصحف أو يتذكر الإنسان ما سعى أو لدلالة ما بعد والتقدير انقسم الراؤون قسمين وليس بذاك أي فأما من عتا وتمرد عن الطاعة وجاوز الحد في العصيان حتى كفر ﴿وَآثَرَ﴾ أي اختار ﴿الحياة الدُّنيا﴾ الفانية التي هي على جناح الفوات فانهمك فيما متع به فيها ولم يستعد للحياة الآخرة الأبدية بالإيمان والطاعة ﴿فإنَّ الجَحِيم﴾ التي ذكر شأنها ﴿هِيَ المَأْوَى﴾ أي مأواه على ما رآه الكوفيون من أن أل في مثله عوض عن المضاف إليه الضمير وبها يحصل الربط أو المأوى له على رأي البصريين من عد كونها عوضاً ورابطاً، وهذا الحذف هنا للعلم بأن الطاغي هو صاحب المأوى وحسنه وقوع المأوى فاصلة وهو الذي اختاره الزمخشري. وهي إما ضمير فصل لا محل له من الإعراب أو ضمير جهنم مبتدأ والكلام دال على الحصر أي كأنه قيل فإن الجحيم هي مأواه أو المأوى له لا مأوى له سواها. ﴿وأمَّا مَنْ خافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي مقامه بين يدي مالك أمره يوم الطامة الكبرى يوم يتذكر الإنسان ما سعى على أن الإضافة مثلها في رقود حلب أو وأما من خاف ربه سبحانه على أن لفظ ﴿مقام﴾ مقحم والكلام معه كناية عن ذلك وإثبات للخوف من الرب عز وجل بطريق برهاني بليغ نظير ما قيل في قوله

تعالى ﴿أكرمي مثواه﴾ [يوسف: ٢١]. وتمام الكلام في ذلك قد تقدم في سورة الرحمن ﴿وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ أي زجرها وكفها عن الهوى المردي وهو الميل إلى الشهوات وضبطها بالصبر والتوطين على إيثار الخيرات ولم يعتد بمتاع الدنيا وزهرتها ولم يغتر بزخارفها وزينتها علماً بوخامة عاقبتها. وعن ابن عباس ومقاتل إنه الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب بين يديّ ربه سبحانه فيخاف فيتركها، وأصل الهوى مطلق الميل وشاع في الميل إلى الشهوة وسمي بذلك على ما قال الراغب لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل واهية وفي الآخرة إلى الهاوية ولذلك مدح مخالفه. قال بعض الحكماء: إذا أردت الصواب فانظر هواك فخالفه. وقال الفضيل: أفضل الأعمال مخالفة الهوى وقال أبو عمران الميرتلي:

فخالف هواها واعصها إن من يطع ... هوى نفسه تنزع به شر منزع

ومن يطع النفس اللجوجة ترده ... وترم به في مصرع أي مصرع

إلى غير ذلك. وقد قارب أن يكون قبح موافقة الهوى وحسن مخالفته ضروريين إلاّ أن السالم من الموافقة قليل قال سهل: لا يسلم من الهوى إلاّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبعض الصديقين فطوبى لمن سلم منه. ﴿فإنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمأْوَى﴾ له لا غيرها، والظاهر أن هذا التفصيل عام في أهل النار وأهل الجنة. وعن ابن عباس أن الآيتين نزلتا في أبي عزيز بن عمير وأخيه مصعب بن عمير رضي الله تعالى عنه كان الأول طاغياً مؤثر الحياة الدنيا وكان مصعب خائفاً مقام ربه ناهياً النفس عن الهوى وقد وقى رسول الله ﷺ بنفسه يوم أحد حين تفرق الناس عنه حتى نفذت المشاقص أي السهام في جوفه فلما رآه عليه الصلاة والسلام متشحطاً في دمه قال: «عند الله تعالى احتسبك» وقال لأصحابه: «لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما وإن شراك نعله من ذهب ولما أسر أخوه أبو عزيز ولم يشد وثاقه إكراماً له وأخبر بذلك قال: ما هو لي بأخ شدوا أسيركم فإن أمه أكثر أهل البطحاء حلياً ومالاً. وفي الكشاف أنه قتل أخاه أبا عزيز يوم أحد وعن ابن عباس أيضاً أنهما نزلتا في أبي جهل وفي مصعب وقيل نزلت الأولى في النضر وابنه الحارث المشهورين بالغلو في الكفر والطغيان.

﴿يسألونك عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي متى إرساؤها أي إقامتها يريدون متى يقيمها الله تعالى ويكونها ويثبتها، فالمرسى مصدر ميمي من سار بمعنى ثبت ومنه الجبال الرواسي وحاصل الجملة الاستفهامية السؤال عن زمان ثبوتها ووجودها، وجوز أن يكون المرسى بمعنى المنتهى أي متى منتهاها ومستقرها كما أن مرسى السفينة حيث تنتهي إليه وتستقر فيه كذا قيل. وتقدير الاستفهام بمتى يقتضي أن المرسى اسم زمان وقوله: كما أن الخ ظاهر في أنه اسم مكان ولذا قيل الكلام على الاستعارة يجعل اليوم المتباعد فيه كشخص سائر لا يدرك ويوصل إليه ما لم يستقر في مكان فجعل الظاهر على ما قيل. وقوله تعالى ﴿كأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ إما تقرير وتأكيد لما ينبيء عنه الإنذار من سرعة مجيء المنذر به لا سيما على الوجه الثاني والمعنى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الإنذار إلاّ قليلاً، وإما رد لما أدمجوه في سؤالهم فإنهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء مستعجلين بها وإن كان على نهج الاستهزاء بها ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ [يونس: ٤٨، النمل: ٧١، سبأ: ٢٩، يس: ٤٨، الملك: ٢٥] والمعنى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الوعيد بها إلاّ عشية الخ. وهذا الكلام على ما نقل عن الزمخشري له أصل وهو لم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار عشيته أو ضحاه فوضع هذا المختصر موضعه وإنما أفادت الإضافة ذلك كما في الكشف من حيث

إنك إذا قلت «لم يلبثوا إلاّ عشية أو ضحى» احتمل أن تكون العشية من يوم والضحى من آخر فيتوهم الاستمرار من ذلك الزمان إلى مثله من اليوم الآخر، أما إذا قلت عشيته أو ضحاه لم يحتمل ذلك البتة وفي قولك ضحى تلك العشية ما يغني عن قولك عشية ذلك النهار أو ضحاه. وقال الطيبي: إنه من المحتمل أن يراد بالعشية أو الضحى كل اليوم مجازاً، فلما أضيف أفاد التأكيد ونفي ذلك الاحتمال وجعله من باب رأيته بعيني وهو حسن ولكن السابق أبعد من التكلف ولا منع من الجمع وزاد الإضافة حسناً كون الكلمة فاصلة واعتبر جمع كون اللبث في الدنيا وبعضهم كونه في القبور وجوز كونه فيهما واحتار في الإرشاد ما قدمنا وقال: إن الذي يقتضيه المقام اعتبار كونه بعد الإنذار أو بعد الوعيد تحقيقاً للإنذار ورداً لاستبطائهم والجملة على الوجه الأول حال من الموصول كأنه قيل: تنذرهم مشبهين يوم يرونها في الاعتقاد بمن لم يلبث بعد الإنذار بها إلاّ تلك المدة اليسيرة، وعلى الثاني مستأنفة لا محل لها من الإعراب، هذا ولا يخفى عليك أن الوجه الثاني وإن كان حسناً في نفسه لكنه مما لا يتبادر إلى الفهم وعليه يحسن الوقف على ﴿**فيم**﴾ ثم يستأنف أنت من ذكراها لئلا يلبس وقيل إن قوله تعالى ﴿**فيم**﴾ الخ متصل بسؤالهم على أنه بدل من جملة يسألونك إلخ أو هو بتقدير القول أي يسألونك عن زمان قيام الساعة ويقولون لك في أي مرتبة ﴿**أنت من ذكراها**﴾ أي علمها أي ما مبلغ علمك فيها أو يسألونك عن ذلك قائلين لك في أي مرتبة أنت إلخ. والجواب عليه قوله تعالى ﴿**إلى ربك منتهاها**﴾ ولا يخفى ضعف ذلك. وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحاكم وصححه عن عائشة قالت: ما زال رسول الله ﷺ يسأل عن الساعة حتى أنزل الله تعالى عليه ﴿**فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها**﴾ فانتهى عليه الصلاة والسلام فلم يسأل بعدها. وأخرج النسائي وغيره عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ يكثر ذكر الساعة حتى نزلت ﴿**فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها**﴾ فكف عنها وعلى هذا فهو تعجيب من كثرة ذكره ﷺ لها كأنه قيل في أي شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها، والمعنى أنهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها ونظر فيه ابن المنير بأن قوله عز وجل ﴿**يسألونك**﴾ كأنك وقت إدراكه مستقراً له فتدبر.

وقوله تعالى ﴿**فِيمَ أنتَ مِنْ ذِكراهَا**﴾ إنكار ورد لسؤال المشركين عنها أي في أي شيء أنت من أن تذكر لهم وقتها وتعلمهم به حتى يسألوك بيانها كقوله تعالى ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ [الأعراف: ١٨٧] فالاستفهام للإنكار و ﴿**فيم**﴾ خبر مقدم و ﴿**أنت**﴾ مبتدأ مؤخر و ﴿**من ذكراها**﴾ على تقدير مضاف أي ذكرى وقتها متعلق بما تعلق به الخبر وقيل ﴿**فيم**﴾ إنكار لسؤالهم وما بعده استئناف تعليل للإنكار وبيان لبطلان السؤال أي فيم هذا السؤال ثم ابتدىء فقيل ﴿**أنت من ذكراها**﴾ أي إرسالك وأنت خاتم الأنبياء المبعوث في نسم الساعة علامة من علامتها ودليل يدلهم على العلم بوقوعها عن قريب فحسبهم هذه المرتبة من العلم، فمعنى قوله تعالى﴿**إلى رَبِّكَ منتهاها**﴾ على هذا الوجه إليه تعالى يرجع منتهى علمها أي علمها بكنهها وتفاصيل أمرها ووقت وقوعها لا إلى أحد غيره سبحانه وإنما وظيفتهم أن يعلموا باقترابها ومشارفتها وقد حصل لهم ذلك بمبعثك فما معنى سؤالهم عنها بعد ذلك؟ وأما على الوجه الأول فمعناه إليه عز وجل انتهاء علمها ليس لأحد منه شيء كائناً ما كان فلأي شيء يسألونك عنها. وقوله تعالى ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا**﴾ عليه تقرير لما قبل من قوله سبحانه ﴿**فيم أنت من ذكراها**﴾ وتحقيق لما هو المراد منه وبيان لوظيفته عليه الصلاة والسلام في ذلك الشأن فإن إنكار كونه ﷺ في شيء من ذكراها مما يوهم بظاهره أن

ليس له عليه الصلاة والسلام آن يذكرها بوجه من الوجوه فأزيح ذلك ببيان أن المنفي عنه ﷺ ذكراها لهم بتعيين وقتها حسبما كانوا يسألونه عنها، فالمعنى إنما أنت منذر من يخشاها ويخاف أهوالها وظيفتك الامتثال بما أمرت به من بيان اقترابها وتفصيل ما فيها من فنون الأهوال كما تحيط به لا معلم بتعيين وقتها الذي لم يفوض إليك فما لهم يسألونك عما لم تبعث له ولم يفوض إليك أمره، وعلى الوجه الثاني هو تقرير لقوله تعالى ﴿**أنت من ذكراها**﴾ ببيان أن إرساله عليه الصلاة والسلام وهو خاتم الأنبياء عليهم السلام منذر بمجيء الساعة كما ينطق به قوله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين إن كادت لتسبقني» والظاهر على الأول أن القصر من قصر الموصوف على الصفة والمعنى ما أنت إلاّ منذر لا معلم بالوقت مبين له. وإنما ذكر صلة المنذر إظهاراً لكونها ذات مدخل في القصر لكون الكلام في القصر على منذر خاص ونفي إعلام خاص يقابله وكونه من قصر الصفة على الموصوف بناء على ما يتبادر إلى الفهم من كلام السكاكي أن المعنى إنما أنت منذر الخاشي دون من لا يخشى، أي ما أنت منذر إلاّ من يخشى دون غيره مناسب للمقام على أنه قيل عليه إن من يخشى ﴿**من**﴾ صلة ﴿**منذر**﴾ ليس من متعلق إنما في شيء ليجعل الجزء الأخير المقصور عليه الإنذار وهذا إن صح استلزم عدم صحة ما قرر لكن في صحته مقال إذ يستلزم أيضاً أن لا يصح إنما هو غلام زيد لا عمرو وإنما هو ضارب عمراً لا زيداً مع شهرة استعمال ذلك من غير نكير فتأمل. والظاهر على الثاني أن ﴿**إنما**﴾ لمجرد التأكيد زيادة في الاعتناء بشأن الخبر وليست للحصر إذ لا يتعلق به غرض عليه بحسب ﴿**حفي عنها**﴾ يرده إذ المراد أنك لا تحتفي بالسؤال عنها ولا تهتم بذلك وهم يسألونك كما يسأل الحفي عن الشيء أي الكثير السؤال عنه، وأجيب بأنه يحتمل أنه لم يكن منه ﷺ أو لا احتفاه ثم كان وإن سؤالهم هذا ونزول الآية بعد وقوع الاحتفاء وأنت تعلم ما في ذلك من البعد. وقرأ أبو جعفر وشيبة وخالد الحّذاء وابن هرمز وعيسى وطلحة وابن محيصن وابن مقسم وأبو عمرو في رواية «مُنذِرٌ» بالتنوين والإعمال وهو الأصل في مثله بعد اعتبار المشابه والإضافة للتخفيف فلا ينافي أن الأصل في الأسماء عدم الإعمال والإعمال عارض للشبه والوصف عند إعماله وإضافته للتخفيف صالح للحال والاستقبال، وإذا أريد الماضي فليس إلاّ الإضافة كقولك: هو منذر زيد أمس وهو هنا على ما قيل للحال لمقارنة «يخشى» ولا ينافي أنه ﷺ منذر في الماضي والمستقبل حتى يقال المناسب لحال الرسالة الاستمرار ومثله ويجوز فيه الإعمال وعدمه ثم المراد بالحال حال الحكم لا حال التكلم وفي ذلك كلام في كتب الأصول فلا تغفل والله تعالى أعلم.